رسائلُ حبٍّ بالأبيضِ والأسودِ

بورتريهاتٌ ونوافذُ

إعداد وتقديم

طلال زينل سعيد

الإهداء

إلى معلّمي الأوّل في الحياة ((جمال بشير مصطفى)) ...

تعلّمت منك أنّ الحياةَ أوسعُ وأعمقُ وأخصبُ كثيراً ممّا نرى ..

وأنّ الجبلَ مدرسة، والبحرُ مدرسة، والسفرُ مدرسة ..

وأنّ صوتَ فيروز ثقافةٌ ورقيٌّ وسعادةٌ وفضاءٌ جميلٌ بلا حدود ..

وأنّ الصداقةَ أرقى فنون الاختيار ..

وأنّ المعرفةَ في أن تصغي جيداً، وأن ترغمَ الآخرين على الإصغاء لك ..

وأنّ متعةَ العملِ في أن يكون إنسانياً خلاقاً حافلاً بالعطاء ..

تعلّمتُ منك ....

أن أصنعَ الواقعَ وأبتكرَه لا أن أكون من صُنعِه ..

وأن أعوّدَ عينيّ على النظر إلى الشمسِ حتى وهي غائبة ..

وأن أكونَ أنا دائماً لا غيري ..

أنت معلّمي، ومحمّد صابر عبيد أستاذي، أطلّ من وحي حبكما على الصحراء فتتحوّل إلى بحر، وعلى البادية فتتحوّل إلى مروجٍ خضرٍ، وإلى العراق الجريح فيتحوّل إلى كرنفالٍ من المحبّة والعافية والحضارة.

المحتويات

. المقدمة

. بورتريهات .

. محمد صابر عبيد بقلمه

. نزار قبّاني

. عبد الوهاب البياتيّ

. عبد الرزاق عبد الواحد

. عبد الرحمن مجيد الربيعيّ

. عبد الستار ناصر

. محمد القيسيّ

. إبراهيم نصر الله

. عمر الطالب

. محمد مردان

. حسن حميد

. صباح القسّ

. حسن سليفاني

. نوافذ .

. خطابٌ متأخرٌ: الكتابةُ ذهبٌ مزيّف

. أسبوعان في ((وان))

. نافذةٌ للوجد: حينَ يخضرُّ العطر

. على هامش عشق السيّدة

. بلاغةُ الذاكرة

. نوروزُ الفرحُ الملوّنُ

المقدمة

هذا الكتاب هو كتاب محبّة واعتزاز وإعجاب واعتراف بالجميل في المقام الأول، وأنا أتابع ما يكتبه أستاذي الشاعر الناقد والأكاديميّ البارع الأستاذ الدكتور محمد صابر عبيد، استهوتني فكرة التقاط بعضٍ من غباره الذهبيّ وهو يتناثر على الأرجاء كلّها، وكنت قدّمت في كتاب سابق حوارات منتخبة جمعتها من مجلات وصحف كشفت عن جزء من شخصيته التي ربما لا يعرفها الكثير، في كتابي الذي صدر عن دار نينوى في دمشق بعنوان ((أنفاس الغابة))، غير أنّ فضولي لم يُشبع على النحو الذي ظللت أتابع فيه ما ينشره هنا أو هناك ولا يخرج مجموعاً في كتاب من كتبه وقد ملأت الدنيا وشغلت الناس، بين تهليلِ محبّ وغمزِ كارهٍ وإشاعةِ حاقدٍ وحيرى حسودٍ، و و و، كتابٌ يحمل أنفاسه ورائحته ورؤيته، من أجل أن أضع اسمي عليه متشرفاً بإعداده وكتابة مقدمة له، فمن متعة التلمذة على يديه، ومتعة العمل تحت إشرافه، إلى متعة الكتابة عنه، مشوار لا ينتهي من متعة كلّها فائدة ومعرفة وثقافة واطلاع وصداقة للكلمة والدلالة والمعنى والخطاب والنصّ والإنسان.

ومع أنّ اهتمامه الكبير والواسع والمعمّق في مجال النقد وقد أصدر عشرات الكتب النقدية التي صارت مرجعاً لا يمكن الاستغناء عنه لأيّ دارس وباحث في الشعر الحديث أو السرد الحديث أو السيرة، ومن ثمّ اهتمامه بالشعر وهو الشاعر أولاً كما يقول دائماً، وأصدر جملة من الدواوين الشعرية التي حظيت باهتمام الدرس النقديّ والأكاديميّ، إلاّ أنّ له من اللطائف الكتابية الخارجة على النقد والشعر بمعناهما التجنيسيّ الواضح، لكنها تنهل منهما ما تشاء، رسائل بالأبيض والأسود وزّعتها في كتابي هذا بين (البورتريهات) التي رسم فيها وجوه وضمائر بعضٍ من أصدقائه، و (نوافذ) كرّسها للكتابة عن حالات وجدانية عميقة لا تبتعد كثيراً عن البورتريهات لكنّها تروي حكايات من وحي الذاكرة، فيها الأصدقاء، وفيها المواقف، وفيها الأحلام، وفيها كلّ ما يجعل من النافذة وسيلة لتلمّس جوهر محمد صابر عبيد وقيمته وفنّه، وأنت تسمع موسيقاه، وترى ألوانه، وتشمّ عبق الورد في كلماته العاشقة، وتنتظر منه ما لا يُنتظر.

سبق للدكتور محمد صابر عبيد أن أصدر كتابه الرسائليّ الأول بعنوان ((رسائل حبّ بالأزرق الفاتح)) عام ٢٠٠٦، ومن ثمّ استكمل كتابه هذا بباقة أخرى من رسائله وأصدره بكتاب ثانٍ

عنوانه ((سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح)) عام ٢٠٠٩، وكان هذا النوع من الكتابة يتموّج بين السرد والشعر والتشكيل والموسيقى، فهو يأخذ من الفنون كلّها ويعجنها بسبيكة كتابية خاصة لا تشبهها كتابة، فهو يكتب رسائله راسماً فيها وجوه أصدقائه، ووجوه الأمكنة، ووجوه الأزمنة، ووجوه الفضاءات، بكلّ حرية وأملٍ ورغبة، رسائله هذه وقد لوّناها بالأبيض والأسود للتعبير عن أصالتها وسحرها وعفويتها وصدقها، فإذا كانت رسائله التي لوّنها بالأزرق الفاتح ذهبت في سياق معيّن يحيل عليه هذا اللون المنتخب، فإنّ هذه الرسائل التي لوّناها بالأبيض والأسود تشتغل في منطقة أخرى لا تقلّ إنسانية وحباً وقيمة عنها، وربما تتشابه بعضها مع بعض رسائله في كتابه ((سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح)) لكنّها عندنا ذات نكهة مختلفة، تأخذها من طبيعة الغموض اللونيّ وسحره وأناقته بين الأبيض والأسود، على الصعيد التشكيليّ، وعلى الصعيد الفلسفيّ والسيميائيّ أيضاً.

فنّ الرسائل على النحو الذي يكتبه الدكتور محمد صابر عبيد ما هو سوى محاولة للعودة بهذا الفنّ العربيّ القديم إلى مجده الزاهر، يوم كان يضاهي الشعر ولاسيما في العصر العباسيّ حيث كان الكاتب أحياناً أهمّ من الشاعر، وكانت الرسائل تقسم على أقسام بحسب هوية الرسالة ومنهجها وفلسفتها ومقصديتها، وحيث كان كتّاب السلاطين ينعمون بالحياة الرغيدة من وراء أقلامهم في تدبيج الرسائل، كان غيرهم ممن اختار الاستقلالية والانتماء إلى طبقة فقراء الناس يكتبون أجمل الرسائل لكنّ حياتهم ظلّت متعثّرة شقيّة، ومن يعود إلى رسائل أبي حيان التوحيديّ من جهة، وأنداده من كتّاب السلاطين من جهة، سيرى ذلك بوضوح ودقة.

لكنّ رسائل الدكتور محمد صابر عبيد ليست سلطانية ولا توحيدية، بل هي رسائل حبّ يكتبها كما يكتب قصيدة، لا يعبّر فيها سوى عن ذاته، وعن لونه، وعن رؤيته، وعن فضائه الشخصيّ الخاصّ خصوصية الشمس والقمر والسنبلة الخضراء والليل الصافي والنهار المشرق، رسائله ليست سوى إمضاءات يوقّع فيها على نسمةٍ عابرةٍ، أو موجةٍ خاطفةٍ، أو إغفاءةٍ حالمةٍ، أو ضحكةٍ نادرةٍ تخرج من القلب إلى القلب.

أسلوب الكتابة عنده أسلوب نوعيّ فائق الخصوصية، وكلّ رسالة تحتوي على الفكرةِ والحِكمةِ والنكتةِ والمفارقةِ والصورةِ المكتظّة بالمعنى والقيمة والرؤية، يتداخل فيها السرديّ بالشعريّ، والدراميّ بالملحميّ، والتعبير بالتصوير، في لغة أنيقة موقّعة تخلو من الزوائد، هي أشبه بمنحوتةٍ

أو لوحةٍ أو مقطوعةٍ موسيقيةٍ أو رقصةٍ باليه، كتابةٌ لها رائحةٌ أخّاذةٌ تنبثق من خلل الكلمات وزوايا الصور وحرارة المواقف وإيقاع المشاهد وفلسفة الأفكار وفيض المحبة.

لن أطيل في التقديم حتى لا أكرّر من فيض الإعجاب ما قلته في مقدمة كتابي السابق عنه ((أنفاس الغابة))، مع أنني أحبّ أن أكرّر ذلك دائماً مهما قيل عن مساوئ التكرار في علم الأسلوب والأسلوبية، فالحبّ هو الوحيد الذي يتكرّر عندنا من دون تكرار، وحسبي أنني أحبّ أستاذي وصديقي الكبير محمد صابر عبيد، وإليكم من رسائله ما رسمه بالأبيض النقيّ والأسود العميق حيث أصالة اللون وأناقته وسحره وديموته.

. بورتريهات .

. محمد صابر عبيد بقلمه

. نزار قبّاني

. عبد الوهاب البياتيّ

. عبد الرزاق عبد الواحد

. عبد الرحمن مجيد الربيعيّ

. عبد الستار ناصر

. محمد القيسيّ

. إبراهيم نصر الله

. عمر الطالب

. محمد مردان

. حسن حميد

. صباح القسّ

. حسن سليفاني

محمّد صابر عبيد بقلمه

أعرف طبعاً أنّ العرب لا يحبّذون حديث النفس، لأنّه يدخل عندهم أخلاقياً في باب الغرور والنرجسية وحبّ الذات، لكنني حين قرأت ((رولان بارت بقلم رولان بارت)) وهو كتاب إيروسيّ في المقام الأوّل على أيّة حال، اكتشفت كم أنّ بوسع المرء أن يتحدث عن نفسه بأهمية وجدانية وروحية وثقافية وفلسفية لا تضاهى، ربما يتاح للمرء أحياناً أن يلتقي بأناس حميمين ومخلصين وقريبين جداً من النفس والروح والرؤيا والمثال، يتدربّون بحكم زمنِ التعامل والتفاعل والمحبة والثقة والصدق المناسب على معرفته وفهمه وإدراك قيمه الداخلية العميقة وفضاءاته الواسعة، غير أنّ ثمّة طبقات عصيّة وغائرة وغائبة ومسكوتاً عنها ليس بوسع أحدٍ . مهما كان . اكتناهها وتقصّيها والوقوف عليها وتلمّس محتوياتها بدقة ومعرفة ويقين وحسم.

ولي أن أقدّم نفسي هنا بقلمي، حيث بوسعي أن أتجوّل حراً في الزوايا المظلمة، والنتوءات الغامضة، والكهوف التي لا يسمح الدخول إليها، والمغاور التي تختزن الأسرار والمسرّات والخطايا الجميلات، كلّما كان ذلك ممكناً ومتاحاً وضرورياً وقابلاً للحديث في الوقت الراهن على الأقل.

عرفت مبكراً أنني سأكون كاتباً ورحت أتغذى على هذا الحلم، وأرعاه بما تيسّر لي من الأماني الممكنات، وأرسم ملامحه، وأصوّر شكله، وأستعين بما تطاله يديّ من الأدوات المتاحة كي أسرّع في تحقيقه ما وسعني ذلك، فقرأت الكثير من الكتب التي سرعان ما اكتشفت أنها لا تسهم عميقاً في اكتشاف منطقة الحلم كما يجب، وكانت البيئة التي أعيش فيها غير معنية البتة بأحلامي، ولم يكن في محيطي من يعلّمني كيف يمكن أن أعيش الحلم وأتوغل فيه وأتمكّن منه، الكلّ معنيون بنشيد العيش المرّ، يتلمّسون شمس الواقع بكلّ ما فيها من حرارة وبلادة وقهر، ولا وقت لديهم للحلم .

ربما كنت غريباً وضعيفاً ومشتتاً وهشّاً وسريع العطب، أنفقت وقتاً كثيراً ألعب بأغلب التوافه التي كانت تتوافر في ما حولي، وربما كانت رغبتي العنيفة بالمقامرة بشتى أنواعها ليست سوى تعبير عن الضيق بمحدودية ما أرى وألمس وأعي وأتخيّل، فانغمست بشتّى أنواع المقامرات من

أبسطها حتى أعقدها، فكنت بسبب ذلك من روّاد المقاهي المدمنين، وتعرّضت لمطاردات من والدي الذي كان يرى في ذلك عملاً مشيناً، لكنني لشدّة ولعي فيه ظللت أمارسه بشغف ومتعة، ربما حتى وقت متأخر من حياتي حيث شعرت بنوع من الإشباع فتركته تماماً .

كنت أشعر بقوة أنّ لديّ ما يحتاج إلى رعاية وسقاية وعناية واهتمام وكشف، لكنّ أحداً لم يساعدني في ذلك في وقت كنت فيه بأمس الحاجة إلى من يدرك معاناتي ويشعر برغبتي الجامحة في معرفة نفسي، كنت ضائعاً لا أعرف ماذا أفعل، ثمة شيء في أعماقي يثور ويتفجر ويبحث عن مفاتيح للانطلاق يكاد يخنقني، حتى كنت لا أهتمّ بدروسي كثيراً مع من أنني أنجح دائماً، أعترف هنا أنّ طفولتي كانت معذّبة ومرتبكة وقلقة وليست على ما يرام، كنت مهموماً بأشياء لا أعرفها على وجه التحديد، اتسمت طفولتي على العموم بالانغلاق وقلّة الفرح وكبح جماح الرغبات .

وحين عرفتْ قريتي ((زمار)) الكهرباء وصل أول تلفزيون إلى مقهى ((محمد الكامل)) الذي كان يتقاضى ((عشرة فلوس)) ثمن الجلوس وعشرة أخرى ثمناً للشاي، وحيث سحرني هذا التلفزيون العجيب بدأتْ مشكلةٌ أخرى مع أبي الذي كان يحرص على أن لا أتأخر ليلاً حتى يغلق التلفزيون شاشته والمقهى أبوابها، وأنا آخر من يغادر المقهى لأجد باب بيتنا مقفولاً وأضطر إلى إيقاظ الجيران كي أصعد على سطوح بيوتهم ومنها إلى بيتنا، وعلى الرغم من ذلك لا يعفيني أبي من عقوبات كانت قاسية جداً وقتها، ولم أتعب من الاستجابة لرغباتي مهما كانت قسوة العقوبات وعنفها.

ثمة مرحلة طفولة أجدها نائية جداً تتلبث في أقاصي الذاكرة مشحونة بالكثير من الضباب والظلام والغبار تسبق هذه المرحلة غير قابلة للتمييز والتعيين والاستعادة، كان فيها أبي يتعالج من مرض التدرّن الرئويّ في بيروت، مع مجموعة من عمال شركة نفط الشمال في حقول نفط عين زالة، إذ ابتعثتهم الشركة إلى مصحّات هناك للعلاج استغرقت بعثتهم ربما ثلاث سنوات أو أكثر، وكان أخوالي هم من يشرفون على رعايتنا مع اهتمام يبدو لي الآن بسيطاً لا أتذكره مليّاً من عمي الذي هو ابن عم والدي، لأنّ أبي ليس له أخوة ولديه أخت وحيدة من زوجة أبيه الثانية كانت بالنسبة لي أكثر من أمّ، وليس بوسعي الحديث عن هذه المساحة من طفولتي أكثر لأنني حين التفت إليها في الحقيقة لا أجد ما يمكن الحديث عنه على وجه الدقّة والوضوح والضرورة والأهمية .

تفتّح وعيي مبكراُ، نعم، ولكن بلا فائدة كبيرة، إذ كان هذا الوعي المتفتّح مبكراً بحاجة إلى تثقيف وتمرين وتمتين وتخصيب وإثراء، لكن شيئاً من هذا لم يحصل حتى وقت متأخر جداً، فأين هذا الذي يمكنه أن يساعدني في مجتمع لا يهمه سوى التفكير المحدود في لقمة العيش، وكان مضرب شركة حقول نفط عين زالة قبلةً لكلّ أبناء القرية التي ما أن يحصل أحدهم فيها على أيّ عمل . مهما كان متواضعاً أو وضيعاً . حتى يعتقد بأنه نجا وأنّ أبواب القدر الغامض انفتحت له، وغير ذلك كان الفلاحون ينتظرون مواسم حصاد الحنطة والشعير ليرتّبوا أمورهم المعيشية على أساسها، وكم تعذّب الناس في سنوات القحط التي يقلّ فيها كرم الطبيعة ويكون شتاؤها الغادر بلا أمطار .

وهكذا ظللت ضائعاً أبحث عن شيء مفقود لا أعرف ما هو، حتى بلغت مرحلة الدراسة المتوسطة حيث عاد قبلها أبي بسنوات من رحلته العلاجية، وكنّا في وضع معيشيّ معقول نسبياً إذ كان أبي لا يألو جهداً في أن يرتّب وضعنا على نحو مقبول، ولم يكن هذا مما يدخل في دائرة اهتماماتي كثيراً حيث كنت مشغولاً بشيء آخر، وكنت في هذه المرحلة مهووساً بالمجلات التي بوسعي الحصول عليها من أيّ مصدر كان، أقرأها بنهم ولذّة من الغلاف إلى الغلاف وكلما التقطت عنواناً لشركة أو مؤسسة أو مجلة أو نادٍ ثقافيّ أدبّج فوراً رسالة وأبعثها بالبريد .

على هذا النحو تشكّلت علاقتي بدائرة البريد وموزّع البريد، إذ كان المكان والإنسان فيهما مصدراً أساساً من مصادر سعادتي المتواضعة حينها، وربما كانت رغبتي في الكتابة هي التي تقودني إلى تمثيلها عن طريق كتابة الرسائل بشكل مستمر، إذ كنت أكتب رسالة في كلّ يوم على الأقل، وانعكس هذا التدريب الفطريّ غير الواعي على أسلوبي في الكتابة فكنت من أفضل طلبة المدرسة في كتابة الإنشاء، وهو الدرس الذي يَختبرُ فيه مدرّس اللغة العربية قابلية الطلبة على التعبير، وفعلاً فوجئ الكثير من المدرسين بطريقتي في الكتابة وكانوا يطلبون مني قراءة موضوعي أمام الطلبة كي يكتشفوا إذا ما كنت قد نقلته من مرجع أو كتبه لي أحد ممن يجيد الكتابة .

كتبت أول قصيدة وأنا في الصف الثالث المتوسط، أي بعمر ١٥ سنة تقريباً، ثم بعدها بقليل اكتشفت مع صديقي أحمد جدوع . الذي كان شاعراً أيضاً . نزار قباني والبياتي، ورحنا أنا وهو نكتب قصائد يومية في المدرسة، ونتبادل الأفكار التي كنا نقول عنها فلسفية، إذ هو يكتب فكرة وأنا أعلّق عليها، ثم يعود هو ليعلّق على ما أكتب، وهكذا، وكنا نلمس من بعض الأساتذة

المختلفين شيئاً من التشجيع، لكننا مع كلّ المضايقات التي كنا نتعرض لها بسبب نزار قباني أو الشعر الحديث مضينا في مشوارنا، غير أنّ صديقي أحمد للأسف توقّف مع من أنه كان يتفوّق عليّ في موهبة أخرى يمتلكها وهي الرسم، ولا أدري لماذا كنت أحلم دائماً أن أصبح رساماً غير أنّ الفرشاة اللئيمة كما يبدو لم تخلق لأصابعي، وهكذا ظلّ هذا الحلم رهين رغبة خامدة لم يكتب لها التفتّح أبداً .

أنهيت دراسة البكالوريا في الفرع الأدبيّ الأول على دفعتي في ((ثانوية زمّار للبنين)) بمعدل قارب الـ ٨٥ % ، وكان هذا المعدّل يؤهلني بطبيعة الحال لدخول أيّة كلّية مخصّصة للفرع الأدبيّ، واخترت كلّية التربية في دورتها الأولى حيث كانت كلّية الآداب التي عزمت على دخولها أولاً قد توقفت عن قبول الطلبة في ذلك العام، ودخلت قسم اللغة العربية الذي كان يلائم تطلعاتي في الكتابة والقراءة الأدبية، وأقمت مع ثلة من أصدقائي الزماريين في الأقسام الداخلية داخل بناية الجامعة، وكتبت أول مقال عنوانه ((الملامح الصوفية في شعر البياتيّ)) نشرته لي مجلة الجامعة التي كانت منبراً ثقافياً مهماً في الزاوية الطلابية، وقد تقاضيت عليه مبلغاً قدره خمسة دنانير يمكنه بكلّ بساطة أن يغطي نفقاتي البسيطة مدة أسبوعين، واستمررت في ذلك، ووجدت فيما بعد مجالاً آخر للنشر مقابل مكافأة جيدة في جريدة ((الحدباء)) الثقافية الموصلية التي نشرت لي عشرات المقالات والقصائد، وهكذا وجدت شيئاً من ضالتي.

كانت ثمة مسابقة ثقافية مهمة لطلبة الجامعة مخصصة لكتابة البحوث الأدبية، اشتركت فيها أول مرة وأنا طالب في السنة الثالثة ببحث عنوانه ((الليل في شعر البياتيّ))، وفاز بالجائزة الأولى، ونشره بعد ذلك أستاذي الدكتور عمر الطالب . الذي كان يرعاني بقدر علاقة الأستاذ بتلميذ جيد . في متن مجلة الجامعة بوصفه مديراً للتحرير، وتسلّمت عليه شيكاً بمبلغ خمسين ديناراً، وكان هذا المبلغ بالطبع ثروة، ثم في السنة الرابعة اشتركت ببحث عنوانه ((اللون في شعر نزار قباني)) فاز أيضاً بالجائزة الأولى ونشر في مجلة الجامعة على حلقتين، وظلّ هذا الموضوع الخاصّ بشعرية نزار قباني اللونية يلاحقني، وحين عقدت صداقتي مع نزار قباني وعدته أن أحوّل هذا البحث إلى كتاب لكنني لم أفِ بوعدي، وعوّضت ذلك أن أعطيت الموضوع لأحد طلبتي لينجز فيه رسالة ماجستير بالعنوان نفسه، وقد أكون وفيت بوعدي على نحو ما.

عيّنت مدرساً للغة العربية فور تخرّجي نهاية عام ١٩٧٩ في الثانوية التي تخرجت فيها، فقد كنت الأول على الكلية وكان بوسعي اختيار أفضل مكان للتعيين، وسعيت في الثانوية إلى أن

أنجز جزءاً من مشروعي في الكتابة والتفكير والرؤية والحلم، واستجاب الكثير من طلبتي لمشروعي، كنت أدرّس بطريقة مختلفة لم يألفها الواقع التدريسيّ هناك، حتى أنني في إحدى المحاضرات . وبجرأة غير مسبوقة . جلبت إلى الصف الخامس الأدبيّ السيمفونية الريفية لبيتهوفن، شرحت لهم حركاتها بالتفصيل ثم أسمعتهم إياها كاملة داخل الدرس، وكنت أجلب لهم الكتب الحديثة وأطالبهم بالقراءة والاستمتاع والتحليل، وحين ألتقي الآن بعض طلبتي في تلك المرحلة ممن كان تأثيري فيهم ظاهراً وجوهرياً أفخر كثيراً بأنني أنجزت شيئاً . ولو بسيطاً . كنت أحلم به وما زلت.

في عام ١٩٨٢ حيث كنت جندياً في مدرسة ضباط صف المشاة في الموصل بعد ثلاث سنوات تأجيل من الخدمة العسكرية لغرض التعيين، أخبرني أحد الأصدقاء أن اسمي ظهر في قائمة المقبولين لدراسة الماجستير في كلية الآداب في جامعة الموصل، وكان فرحي لا يوصف إذ تخلصت من حياة الجندية القاسية جداً، وفي الوقت نفسه حظيت بفرصة التعبير عن ذاتي في فضاء كنت أحلم به، وكانت الفرصة مواتية أيضاً لأكون عنصراً أساسياً من عناصر الحضور الثقافيّ في المدينة، وتعرّفت على نحو جيد على معظم أدبائها، وأسهمت سنوات عدّة في قيادة فرع اتحاد الأدباء في المدينة مسؤولاً عن النشاط الثقافيّ فيه، وبدأت أتمثّل نفسي على نحو أكثر قيمة وحيوية ونشاط ورؤية وحضوراً من ذي قبل، وصار لي اسم أدبيّ في مجال النقد الأدبيّ خاصة، ليس في مدينة الموصل فقط بل في بغداد أيضاً، وكنت أحضر برفقة أصدقائي من أدباء الموصل معظم النشاطات الثقافية التي تحصل في العاصمة وعلى رأسها مهرجان المربد.

بدأت النشر في صحف ومجلات بغداد كافة، وبدا اسمي يلفت الانتباه، وقد أغراني هذا بالانغماس في لذّة النشر وعوائده المادية التي كانت حينها جيدة، وكنت من أكثر زملائي حضوراً في المشهد الثقافيّ على صعيد النشر، وحين عدّت فيما بعد لتفحّص نتاجي المنشور لم أحتفظ منه إلّا بالقليل الذي وجدت أنه يمكن أن يمثّل صوتي ويكون جزءاً من تراثي، وأهملت الكثير الآخر الذي وجدته بعد التأمل ليس سوى نتيجة طبيعية لفورة فرح النشر الأولى، لكنني لم أندم عليها إذ هي على أيّة حال كرّست اسمي على نحو ما وكانت سبباً في تعرّف الكثير من الأوساط الأدبية عليّ .

وعلى الرغم من حيوية هذا الوسط الذي أخذني إليه بقوّة إلّا أنّ شيئاً ما في أعماق ذاتي كان يناديني باتجاه آخر، لم أكن أعي أو ألتفت كثيراً إلى هذا النداء العميق، ربما لأنّ وضعي لم يكن

آنذاك مؤهلاً للاستجابة المطلوبة، غير أنّ هذا النداء كان يقلقني ويطرح عليّ أسئلته التي كنت أتهرّب من مواجهتها على نحو ما، لذا فقد كنت دائم التأجيل للنظر المعمّق في معنى هذا النداء وقيمته وإيقاعه الهادر، وانشغلت حتى عام ١٩٨٧ . سنة ظهور اسمي في مرحلة الدكتوراه في كلية الآداب أيضاً . بهذا الفضاء الملتبس وغير المجدي لي كثيراً، واستمررت بالأسلوب نفسه حتى حصلت على الدكتوراه صيف عام ١٩٩١، وكنت قبل ذلك بعام قد أوفدتني جامعة الموصل إلى القاهرة لمدة شهر للحصول على المصادر غير المتوافرة لغرض أطروحتي للدكتوراه، وكانت فرصة أخرى مهمة لي ساعدني فيها الصديق الشاعر أمجد محمد سعيد الذي كان مديراً للمركز الثقافيّ العراقيّ في القاهرة، ونظّم لي محاضرة عن النقد العراقيّ الحديث غطّتها كلّ الصحف المصرية وحضرها الكثير من الأدباء المصريين وحفلت بنقاشات طويلة ومعمّقة، ووصفتها القاصة العراقية المقيمة في القاهرة بثينة الناصري في عرض موسّع بأنها أكثر محاضرة حظيت باهتمام جمهور الحضور على نحو مثير فاجأها، كان لهذه الزيارة حقاً أكبر الأثر في تمتين علاقتي بذلك النداء الذي ما ينفك يندلع في مخيلتي ويتردد في أعماقي بلا هوادة لاكتشاف ذاتي.

تمّ تعييني في كلية التربية للبنات في جامعة تكريت حتى قبل أن أناقش أطروحتي للدكتوراه، وباشرت في الكلّية منتصف شهر تشرين الثاني تقريباً من عام ١٩٩١، ودرّست طالبات السنة الرابعة مادتي الأدب الحديث والنقد الحديث، وليس بوسعي طبعاً في هذه المناسبة أن أتحدّث عن تجربتي الثرية الخصبة الآسرة والشائكة في هذه الكلية، بكلّ ما شابها من التباس وتعقيد وتداخل وحسد وغيرة وربح وخسارة وليل ونهار وحلم وواقع وجنون وحيرة وضباب وغبار ونار ونور وحبّ وكره وصداقة وعداء وصفاء وغيم ومطر وبرق ورعد وتفاهة وحساسية وخبث ونذالة وفقدان وحماقة وكلّ شيء تقريباً، لأنّ ذلك بحاجة إلى كتاب كامل قد تتاح لي فرصة وضعه في قابل الأيام، وربما يكون صديقي المبدع فرج ياسين قد أتى على جزء يسير منه في شهادته اللمّاحة عني .

لكنّ تجربة عشرين سنة في جامعة تكريت حصل فيها ما يحكي تجربة حياة كاملة تقريباً ملغومة بالفتوحات والمسرّات والخيبات ليس من السهل احتواءها، إذ من حقّها عليّ أن أقدمها في كتاب كامل أو ربما رواية، عشرون سنة أخذت مني الكثير وأعطتني الكثير، وأحسب بقدرٍ مناسب وضروريّ ومقصود من الغرور القول إنّ غباري الملوّن في أرض الجامعة وسماء المدينة معاً متناثر في كلّ الأرجاء، وليس من السهل التخلص منه، أو محوه، أو التقليل من خطورته

وسطوته، مهما ظنّ وتمنّى ودعا من يقلقه هذا الغبار، ويزكم أنفه، ويحجب عن عينيه المريضتين مسار الرؤية بوضوح وواقعية .

ومع أنني كنت أتمنى أن يأتي تعييني في جامعة الموصل، إلّا أنني سرعان ما تقبّلت الأمر وسعيت إلى أن أواصل حلمي في مشروعي الأدبيّ والثقافيّ والأكاديميّ، ومع ذلك لم تكن الأمور ميسّرة على النحو الذي يسمح لي بالتحرّك الحرّ كيفما أشاء، لذا خفّ حماسي بعد ذلك بقليل وانتبهت إلى نفسي وأصغيت بعمق ومحبة ورحابة وتأمل هذه المرّة للنداء الذي لم تخفّ جذوة حماسه مطلقاً، وكان أن حصلت نهاية عام ١٩٩٤ على لقب أستاذ مساعد، وفتحت كلية التربية للبنات أبواب دراسة الماجستير، وأعترف هنا على وجه الدقّة أنّ هذا العام بظروفه المثالية هذه أتاح لي لأول مرّة اكتشاف ذاتي لأعرف بالضبط أين أنا، وماذا أريد .

يا إلهي كم تأخر هذا الأمر، لكنني لم التفت إلى الخلف . كعادتي دائماً . ورحت أسابق الزمن لأضع هذا الاكتشاف المدهش موضع التنفيذ والإنجاز، وعملت في هذه الأثناء على أول كتاب لي نشرته على فصول هو ((السيرة الذاتية الشعرية))، واشتركت فيه عام ١٩٩٨ في مسابقة الشارقة للإبداع العربيّ في دورتها الثانية، وفاز بالجائزة الأولى، فعرفت حينها أنني أدركت الطريق ورأيت الضوء في نهاية النفق كما يقولون .

أعترف أن عام ١٩٩٩ عام التسعات الثلاث هو عامي، إذ بدأت ألفت الانتباه بقوّة إلى اسمي على صعيد عربيّ . في الأردن وسوريا خاصة .، إذ نُشرت لي عشرات المقالات المهمة في صحف ومجلات البلدين وبكثافة ظنّ الكثير من قرائي فيما بعد أنني أقيم فيهما، مع أنني كنت أبعث مقالاتي بالبريد العادي حتى وصفني أحد الأصدقاء بأنني كاتب شبه يوميّ في الصحافة الأدبية الأردنية، وانفتحتُ بعدها على المجلات الأدبية الأخرى في الوطن العربيّ، وبدأت أراسل بعض الجامعات العربية للإسهام في مؤتمرات علمية تقيمها، وقد أصبت أكثر من مرّة بالإحباط حين لم أتمكّن من السفر بسبب صعوبة الإجراءات وتعقيد الموافقات الأمنية والرسمية، ولم أفلح في السفر لهذا الغرض حتى عام ٢٠٠٢ حيث أسهمت في مؤتمر ((التجربة الشعرية السورية الحديثة)) في جامعة تشرين في اللاذقية، وكنت بلا أدنى تواضع أحد نجوم المؤتمر على الأصعدة كافة، تعرفت في هذا المؤتمر على البحر وعلى حورية البحر، وكانت فرصة ثمينة وغالية لن أنساها ما حييت.

غادرت بعد نهاية المؤتمر إلى دمشق مع أصدقائي الجزائريين الذين تعرفت عليهم وأحببتهم جداً، إذ قضيت ثلاثة أيام قبل أن أغادر إلى عمّان للإسهام في مؤتمر جامعة جرش، وقد استغرقت سفرتي عشرين يوماً عدت بعدها إلى الموصل من عمّان مباشرة، وبعدها توالت السفرات والمؤتمرات بكثرة وكأنني كنت متعطشاً لهذا النشاط الجميل الذي أثراني كثيراً، واتسعت دائرة النشر . كتباً ومقالات . حتى أصبحت من أنشط أصدقائي في هذا المجال، إذ نشرت حتى الآن أكثر من ثلاثين كتاباً وأسهمت في أكثر من ثمانين مؤتمراً وندوة وملتقى في الكثير من البلدان العربية والصديقة.

بهذا الانفتاح على الفضاء الثقافيّ ضاق اهتمامي بالجانب الأكاديميّ الصرف في حياتي، فقد وجدت نفسي خارج الجامعة لا داخلها، وذلك لأنّ الجامعة ظلّت تتعثّر بأفقها الضيّق المدرسيّ المحدود، ولم تكن تنظر إليّ وأنا أحقق هذه النجاحات بالقدر الكافي من الضوء فأهملتها، وسعيت بأساليب كثيرة إلى أن أحدد عملي الأكاديميّ بأقلّ جهد ممكن، حتى وصل في السنوات الأخيرة إلى أن أدرّس مادة واحدة في مرحلة الدكتوراه وأقدّم محاضراتي مرة كلّ أسبوعين، وهكذا كانت علاقتي بالجامعة ضعيفة إلى أقصى حدّ، وبالمقابل لم أكن أنا وبكلّ ما أنجزته أعني شيئاً بالنسبة للجامعة، حتى أنني فزت بالجائزة الأولى في مسابقة الشارقة للإبداع العربي في مجال النقد الأدبيّ، ولم يقل لي أيّ مسؤول في الجامعة كلمة مبارك أو شكراً، وحين قرأت في الصحف الأردنية أنّ ملك الأردن استقبل الشاعر الأردنيّ الذي فاز معي بجائزة الشعر وكرّمه عرفت كم أنا غريب، وفزت بعدها بجوائز أخرى عن أعمالي النقدية والشعرية وبقيت جامعتي غير مكترثة بذلك مطلقاً.

ومع كلّ بُعدي عن الجامعة وغربتي فيها لم أكن مرغوباً سوى من بعض زملائي القلائل جداً الذين يفهمون نغمتي ويفكرون معي على الموجة نفسها، وثلة من طلبتي الأذكياء الذين كنت أتحمّل قسوة الجامعة وظلمها لأجلهم، ولم أكن أحسب لذلك في جوهري أيّ حساب، فثمة قوانين راسخة في الحياة تؤكد أنني الرابح في النهاية والجامعة هي الخاسرة حتى وإن أدركتْ الجامعة خسارتها بعد حين، وأنا هنا بطبيعة الحال لا ألوم أحداً قطعاً، فالكلّ كان يدافع عن أنموذجه بقوّة وعنف وشراسة وقسوة، لكنني في أعماق هذه العاصفة الصفراء التي ما برح الكثير من الصغار يديمون ما تيسّر لهم من غبارها اللعين كنت الأقوى حضوراً، وظلّت سمائي صافية وقمري مضيئاً ونجومي أكثر بريقاً ولمعاناً وتحدياً، على النحو الذي بقي اسمي الأصيل فيه يستلقي على

المتن برحابة وألق وهيمنة وسحر وإثارة، فيما انحشرت أسماؤهم المتآكلة الطارئة في فضلات الهوامش المهملة بلا ملامح .

اليوم بعد أن نَقلتُ بيسرٍ عجيب . بلا وداع ولا ألم ولا دموع ولا دعوات . كامل أمتعتي وحوائجي وفضائي وقلبي وطموحاتي ومشاريعي إلى جامعة الموصل، وقد تركت ورائي عشرين سنة حافلة بالغيم والغبار في رحاب جامعة تكريت مرّت كطيف غائمٍ دبقٍ جمعَ الأخضرَ واليابس، الغثّ والسمين، الصيف والشتاء، العلقم والعسل، الزمن والمكان، الطعنات والقبلات، الهزائم والانتصارات، في قارورة شفافة واحدة، بوسعي أن أدير ظهري قليلاً من أعلى القمّة التي أتربّع عليها فوق هرم كتبي الذي يشقّ بهاؤه عنان السماء يوماً بعد آخر، بوسعي أن أتأمل ما تركته من ظلال دافئة مخضلّة بالحنين مرّت عليها أقدامي الحافية الحانية، وأشجار ذكية وعاشقة حجبت روحي عن عيون المتلصصين، وزوايا خفية مضمّخة بالطراوة والعبث والجنون الجميل ستبقى تنطق باسمي أبد الدهر، وضمائر ميّتة ستندم ذات يوم على أنها قطعت ببربرية وحشية جدائل الشمس، وصغار لن يكبروا يوماً ما لأنّ الله خلق واحدهم قزماً لن تنفعه أيّة عملية تجميل يمكن أن ترفع رأسه المتدلّي قليلاً إلى أعلى، وسحليات صغيرة غبية وعمياء لم تُخلق إلّا كي يدوس عليها الآخرون، لكنني بالمقابل تركت مروجاً خضراء متموّجة تعبق بالموسيقى، لا تكفّ عن العزف والغناء والفرح والرقص والجنون، وينابيع أصيلة لا أحسب أنّ مياهها النقية الزاهية ستجفّ يوماً ما، وحسبي ذلك.

لست نادماً مطلقاً على شيء، فكلّ نجاحاتي مقيّدة باسمي، وكلّ إخفاقاتي أيضاً، كلّ فتوحاتي ممهورة بختمي، وكلّ حماقاتي مدوّنة بأمانة وثقة في سيرتي، لن أتنازل عن شيء مما عرفت وخضت واخترقت وربحت وخسرت، كلّها أسهمت في صنعي على النحو الذي أريد وأتطلّع، وكلّها أسست لتاريخ ساطع يحقّ لي أن أفخر به وأتباهى، فدمي الآن أكثر غزارة وحرارة وجبروتاً وإضاءة، وكذلك عرقي، رغبتي في الحياة أوسع وأعمق وأكثر حضوراً وتألقاً، زرت بلداناً كثيرة وعرفت نساء كثيرات، زرعت أشجاراً لا حصر لها في بطون الوديان وعلى سفوح الجبال، احتسيت الكثير من دموع الملكات المعتّقة وأكلت الكثير من التين البرّي الباذخ المذاق، ولم أكن أبداً يوماً ما من صيادي الحضائر، فالبريّة دائماً هي ساحة صيدي وملعبي، وعلى هذا فإنّ دمي لا يحوي قطرة واحدة فاسدة ولا مزوّرة، وجسدي ينتمي بكليته إلى الطبيعة الحرّة التي لا تتغذى إلّا على الطازج البكر .

نزار قبّاني

كان لقائي الأوّل بنزار قبّاني سريعاً خاطفاً وخالياً تقريباً من ملامح ما كنت أتمناه وأرجوه وأرسمه في خاطري وخيالي، فهو نجم نجوم ((مهرجان الأمّة الشعريّ)) الذي عُقِد في بغداد ربيع عام ١٩٨٤ وفارسه المتألق وعنوانه الأوّل، على الرغم من أنّ معظم فرسان الشعرية العربية المعروفين كانوا موجودين فيه (ربّما) باستثناء أدونيس ونازك الملائكة، فمن أين لي أن أحظى بما أريد من وقت كافٍ لأحدّث نزار قباني عن مشروعي في كتابة كتاب عن التشكيل اللوني في شعره، وكنت لمّا أزل في بداية طريقي النقديّ حيث أبحث عن فرصة نوعية كهذه أعبّر فيها عن نفسي، وأفيد في الوقت نفسه من شهرة نزار ونجوميته واهتمام القراء بشعره وبما يكتب عنه، ومع ذلك ولأسباب أجهلها كنت على ثقة بأنّ نزاراً سيستجيب لي على نحو ما، ورحت أتحرّك بحثاً عن هذه الفرصة وأنا على شبه يقين بأنّ ما أحلم به قريب التحقق جداً .

دخل نزار بهو قاعة الرشيد مثل فارس خرافيّ يرفل بالأناقة والعطر والشموخ والألق والعنفوان حيث سيلقي قصيدته صباحاً، محاطاً بالمعجبين والصحفيين والأصدقاء، (ترافقه طواويس وتتبعه أيائل)، جلس قليلاً فاندفعت نحوه مخترقاً الجموع، وفوراً عرّفته بنفسي وبما أنا مقدم عليه، طمعاً في أن أحظى باهتمام فوريّ منه يتيح لي فرصة أن أكون أكثر قرباً من الآخرين، على النحو الذي يتسنّى لي الحصول على شيء مهم منه بشأن مشروعي في الكتابة عن شعره، وأكون بذلك قد حققت نصراً مهماً أنا بحاجته كثيراً، وهو ما حصل فعلاً حين أعارني اهتماماً كبيراً وسمعني جيداً وأشاد بفكرتي المتميزة لدراسة شعره من هذا الجانب .

هذه النتيجة أفرحتني كثيراً مع أنها كانت صغيرة ومبتسرة ولا تشفي غليلاً طامعاً وحالماً ومشتعلاً بالتطلّع، وذلك لأنّ المحيطين به كلهم يرومون الحصول منه على شيء ما كما تبدّى لي، فضلاً على أنه سيعتلي المنبر بعد قليل ليلقي قصيدته، لكنّه أسرّ لي أن أكتبَ له على عنوان دار نزار قباني في بيروت كي نتواصل بشأن الموضوع وبتفاصيله وحيثياته، وحيث لم أكن واثقاً كلّ الثقة من أنه سيجيب على رسائلي داهمتني خيبة صغيرة ما لبثتُ أن بددتها بفرحة لقائي به وحواري السريع معه، وعزمت على أن أراسله حين وجدت أنّ الحصول على وقت أكثر مما حصلت عليه في ضوء المعطيات التي ذكرتُ شبهُ مستحيل، فضلاً على أنّ طبيعتي

الخجولة بعض الشيء لا تسعفني كثيراً في الحصول دائماً على مكاسب ممكنة على هذا الصعيد، وهكذا اقتنعت بأنّ الوسيلة الوحيدة المتبقية للتواصل مع نزار قباني هي المراسلة.

فور عودتي إلى منزلي بعد أن فضّ السامر وانتهى المهرجان انكببت على أوراقي أدبّج رسالة لنزار قباني، ولا شكّ في أنّ الأمر يدخل عندي في باب المحنة، إذ ماذا يمكن أن أكتب لنزار قباني سيّد الكلام في الشعر وفي النثر، وكيف سأقنعه بأنني جدير بالكتابة عنه حين لا تحمل رسالتي ما يجعلني أرفع رأسي عالياً أمامه، وأرغمه على احترام رسالتي والاهتمام بها وسرعة الإجابة عليها، كتبت الرسالة الأولى ربما من ورقتين اثنتين فقط، ورحت أعيد قراءة الورقتين بدقّة وأناة وتحسّب وخوف، وحين اطمأننت إلى ما كتبتُهُ حملتُ الرسالة إلى البريد فوراً وأرسلتها إلى دار النشر التي تحمل اسمه في بيروت .

أنا طبعاً أثق بالبريد ثقة مطلقة وعلاقتي به وطيدة جداً، حتى أن علاقتي بساعي البريد في بلدتي الصغيرة ((زمّار)) كانت نوعية، إذ طالما حمل لي هذا الساعي الجميل (رحمه الله وطيّب ثراه) رسائل من كلّ مكان، وهو يعرف كم أنا مولع ومجنون بالمراسلة، وكم تصلني رسائل باستمرار من أنحاء العالم، ولذا كان انتظاري لرسالة نزار قباني من أجمل الانتظارات في حياتي، عرفت فيها لذّة الانتظار الجميل وسحره بما يكتنفها من غموض ووعود وأحلام، وأنا مليء بالثقة بأنّ رسالته في طريقها إليّ، وفي ظهيرة أحد الأيام الهادئة كنت عائداً من مشوارٍ مع أحد الأصدقاء صيف عام ١٩٨٤ هتف إليّ ساعي البريد من بعيد، ببذلته الزرقاء الحكومية التي أحبّ منظرها جداً وهي تحمل الرسائل التي أحبّ إليّ، ورفع يده ملوّحاً برسالة عرفت فوراً أنها رسالة نزار قباني .

كانت فرحتي بلا حدود طبعاً وأنا أتلمّس رسالته على ورق أصفر مذهل بجماله وأناقته، وأمرّر يديّ على غلاف الرسالة الذي يحمل اسمه أيضاً كما ورقة الرسالة نفسها، والطوابع الملصقة عليها القادمة من بيروت، يا إلهي ... ها هو الحلم يتحقق، غير أنّ هذه المفاجأة السارّة لم تكن شيئاً قياساً بما كتبه لي نزار في رسالته الأولى، قرأت ما كتبه عشرات المرّات وأنا أزهو بما استطعت أن ألفت فيه اهتمام نزار بقوّة، خطّه الجميل كأنّه لوحة بارعة أخّاذة لا يمكنني مغادرة سحرها والابتعاد عن سطوة إيقاعها الباذخ مطلقاً، حين خاطبني أولاً بـ **((عزيزي وسفير الجميل))**، وحيث بدأ رسالته بـ **((قليلة هي الرسائل التي تخضّني وتحرضني وتعطيني مفاتيح الدهشة، ورسالتك استوفت كلّ شروط التحريض فماذا تريد أكثر؟))**، رحت أقلّب هذا الكلام

الذهبيّ الخلاّب كمن لا يصدّق .... (رسالتي أنا تبهر نزار قباني سيّد الكلام إلى هذا الحدّ)؟ إنه والله لأمر عظيم جلل، وباشرت على الفور بتدبيج رسالة ثانية أؤكّد فيها قدراتي له وأحتلّ الموقع الذي أتمنى في فضائه .

كتبت الرسالة الثانية بالمحبة نفسها والاندفاع نفسه وأنا أجتهد في تجويد كتابتي على النحو الذي يجعل نزار قبّاني يلتفت إليّ بقوّة أحلم بها، كتبت هذه المرّة ثلاث صفحات تقريباً، ومن شدّة فرحي بما كتبت غلّفت الرسالة فوراً واتجهت إلى البريد كي أرسلها بعد يومين فقط من وصول رسالته الأولى إليّ، مزهواً بما كتبه نزار لي وعنّي، وبما كتبت له من كلام فاق في نظري ما كتبته له من كلام في الرسالة الأولى، كنت عازماً على أنّ أضرب بقوّة وجدارة ما وسعني ذلك حين اعتقدت أنّ هذه الفرصة لا يمكن تعويضها. ولم أنتظر طويلاً حتى جاءتني رسالة نزار الثانية وهي تتضمّن اعترافاً واضحاً وصريحاً بتميّزي اللافت في الكتابة، إذ كتب لي كلاماً كبيراً تجاوز ما كنت أنتظره وأتمناه، قال لي **((منذ رسالتك الأولى إليّ شعرتُ أنك تلعب على الورقة جيداً، وتعرف كيف تخطف الأضواء والأبصار))**، يا إلهي: أهذا أنا في نظر نزار قباني؟ أعترف بأنّ غروراً أصابني وأنا أفركُ ما صاغه نزار لي في هذه الأيقونة الخلاّبة كما تُفركُ الماسةُ من أجل أن يتفجّر عطرُها الكامن في اللغة والصورة والمعنى والخيال، ورحتُ أدبّج رسالة ثالثة لنزار بعد أن شغلني هذا الأمر عن أيّ شيء سواه، فبماذا يمكن أن يحلم كاتب شاب مثلي أكثر من أن يردّ نزار قباني على رسائله بمثل هذا الاهتمام والإعجاب والمودّة؟

كان حلمي يتفاقم في هذا السياق، وربما تجاوز حدوده بعض الشيء، إذ كنت أرجو أن تستمر الرسائل بيني وبين نزار حتى تصبح كتاباً ينشره نزار ضمن منشوراته في المستقبل القريب، لكنّ حكمة الشعر القاتلة التي سلّطها علينا جدّنا أبو الطيّب ((ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه .... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن)) تظلّ تلاحق أحلامنا وتجهض تطلعاتنا إلى الأبد، فليس لنا من الحظّ ما يكفي لأن تغيّرَ سفنُنا مجرى الرياح، مهما كانت سفننا عملاقة والرياح هشّة ضعيفة، قَدَرُنا أن تتلاعب الرياح بشهوات سفننا لتقمعَ أحلامَها بالوصول إلى اللذائذ المنتظرة المشتهاة بلا سندٍ أو مُعين .

ولم أعرف حتى هذه اللحظة إن كانت رسالتي الثالثة إلى نزار وصلته أم لا، لأنه في تلك الأيام غادر بيروت نهائياً إلى أوربا بعد أن أصبحت أكثر خطراً عليه من أيّ وقت مضى، فلم يصلني منه شيء، وعلى الرغم من أنني حزنت كثيراً على قتل حلم هو أجمل الأحلام، لكنّ

رسالتيه إليّ ظلّتا ميراثاً أصيلاً وثميناً لا يعادله ميراث عندي، وحين نشرت كتابي ((سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح . هذه رسائلي .)) الذي ضمّ مجموعة مما كتبت من سرديات رسائلية، وضعتُ رسالَتيّ نزار في مقدمة الكتاب وعددتهُا تقديماً لسردياتي هذه، وبقيتا من العزيز النادر الذي أحتفظ به دائماً .

أرسل نزار إليّ أيضاً الأعمال الشعرية بالأجزاء الثلاثة الأولى المشهورة وقد كتب إهداء رائعاً لي على كلّ جزء منها، لكنها سُرقت من مكتبتي جميعاً، وأصابني ذلك بحزن شديد في وقتها، لكنني شعرت بعدها أنّ كنزاً مثل هذا فيه إهداء بقلم نزار يجب أن لا يكون عُرضة للسرقة، ويوضع في المكتبة حاله حال أيّ كتاب آخر، فاقتنعت بأنّ سرقة الأعمال الشعرية بأجزائها الثلاثة ليس سوى شكل من أشكال الأسطورة النزاريّة التي لا تكفّ عن إنتاج أحلامها ورؤاها وحكاياتها ومطرها الملوّن الجميل، فهنيئاً لسرّاقي وسرّاق نزار، وأنا أعفيهم الآن من أيّة ملاحقة قانونية أو أخلاقية أو أدبية، وأسامحهم، إذ يكفي أن يكون بيني وبينهم نزار قباني العظيم، وأكتفي برسالتيه ذخراً لا يمكن التفريط به، إذ لا يعقل أن يحتوي منزلي ومكتبتي على رسالتين من نزار، وإهداءات على ثلاثة أجزاء من أعماله الشعرية، ربما كان هذا كثيراً فذهبتْ الأجزاءُ إلى أمكنة أخرى وبقيت الرسالتان ثُريتين تضيئان منزلي وقلبي وشعري وذكرياتي. المشكلة الحقيقة في كلّ هذا الفضاء أنني لم أحتفظ بنسخ من الرسائل الثلاث التي كنت بعثتها إلى نزار، إذ كنت أعوّل ربما على أنّ هذه الرسائل ستكتمل بعد أن تبلغ عدداً يسمح بنشرها كتاباً، ويقوم نزار نفسه بهذه المهمة، ولا شكّ في أنّ ما اقترفته من خطأ في هذا المجال لا يمكن غفرانه، فكم أتمنى الآن لو أنني أعرف ماذا كتبت له في رسائلي بحيث أعجبتُه كلّ هذا الإعجاب، لكنّ تمنياتي هذه سراب أحمق بلا مصير، وحسبي أولاً وآخراً أنني نجحت في الاحتفاظ برسالتيه شاهداً على طبقة غير معروفة من طبقات شخصية نزار قباني.

عبد الوهاب البياتيّ

حدث في نهاية ربيع عام ١٩٩٠ أن زار البياتيّ مدينة الموصل بدعوة من اتحاد أدباء نينوى، كنت وقتها طالباً في مرحلة الدكتوراه وحيث عقد البياتيّ أول ندوة له في قاعة الجامعة الكبرى، دخلت القاعة الممتلئة بالحضور الجامعيّ طلبة وأساتذة، وما أن دخلت القاعة التي كان يدير الجلسة فيها الناقد ماجد السامرائي حتى دُعيت على نحو مفاجئ لاعتلاء المنصّة بطلب شخصيّ من البياتيّ، وحين اعتليت المنصّة أخبرني الدكتور نجمان ياسين الذي كان على المنصة أيضاً أنّ البياتيّ منذ أن وصل الموصل سأل عني مباشرة، وتحدّثت وقتها في الجلسة عن علاقتي بشعره في وقت مبكّر من حياتي مع القراءة والكتابة، وبعد هذه الجلسة أمضيت أوقاتاً جيدة مع البياتي طيلة الأسبوع الذي قضّاه في الموصل .

بعد أن انتهت أيامه الثرية في الموصل ضيفاً مميزاً على اتحاد أدباء نينوى عاد إلى بغداد حيث يعيش مدة زيارته إلى العراق في منزل ابنه (عليّ) الضابط في الجيش العراقيّ، وكنت أخبرته أنني سأسافر بعد أيام إلى القاهرة موفداً من جامعة الموصل لاستكمال متطلبات شهادة الدكتوراه التي أعمل عليها، وطلب مني حينها أن أتصل به على هاتف منزل ابنه كي نلتقي قبل سفري، واتصلت به فعلاً واتفقنا على اللقاء في كافتريا فندق الشيراتون السابعة مساءً يوم ١٩٩٠/٦/٣، وحين دلفت إلى الكافتريا في الموعد المحدد وجدته بصحبة الدكتور نزار الحديثي الذي ما لبث أن غادر، وبعد أن احتسينا القهوة معاً بدأت رحلتنا في شوارع بغداد وحاناتها حتى الرابعة من فجر اليوم التالي، بعد أن تأكد من أنني قادر على مجاراته في السهر والتجوّل على هذا النحو .

طفنا معاً في الكثير من حانات بغداد الصيفية وصادفنا في إحداها الشاعر رشدي العامل الذي احتفى بنا وضيّفنا، كان ليل بغداد في ذلك الحين جميلاً وصافياً ورائقاً وقد استغللت ذلك لأسأل البياتيّ عن الكثير مما كان يشغل بالي عن الشعر، وعنه، وعن كلّ شيء، وكان هو كريماً معي في رحابة ومحبة عالية ربما فوجئت بها .

لم يكن سؤاله عني حين وصل الموصل من باب المصادفة، بل كنت قبل أيام من هذا التاريخ قد نشرت ردّاً عليه في مجلة (ألف باء) التي كانت نشرت معه مقابلة لمناسبة زيارته

للعراق، ومن ضمن ما قاله في هذا اللقاء إنه لا يوجد نقّاد في العراق سوى محمد مبارك وطراد الكبيسي، فكتبت ردّاً حاورت فيه البياتيّ في هذه القضية بالذات وقلت مخاطباً إياه إنّ النقد العراقيّ بأسمائه الشابّة حقّق منجزات كبيرة ربما لم يطّلع عليها، وبمجرد أن جلست بجانبه على المنصّة أشار إلى أنه اطّلع على ردّي في المجلة، وأنه لا يقصد بكلامه النقاد الجدد بل الجيل السابق عليه، وأبدى إعجابه الكبير بما أكتب، وأخبرني أنه قبل سنتين تقريباً وصله من أحد أصدقائه وهو في أسبانيا مقالاً لي أعجبه جداً كنت نشرته عن قصيدته ((المعجزة))، وظلّ اسمي عالقاً في ذهنه حتى قرأ مقالي الآنف الذكر في (ألف باء) فكان حريصاً على اللقاء بي في الموصل حين زارها، وربما كانت جسراً لما لمسته منه من اهتمام بي وحرص على إبقائي قريباً منه .

تطرقنا في تلك الساعات التسع التي تجولنا فيها في شوارع بغداد إلى الكثير من الموضوعات، كنت لا أعجز من طرح الأسئلة وهو لا يتكلّف من الإجابة عليها، وأذكر أنه كان لاذعاً فيما يتعلّق بالكثير من زملائه الشعراء، وقد روى لي رواية إيروتيكية ذات طابع كوميديّ عن الجواهريّ حين التقيا في براغ، وحين زرت القاهرة وجدت أنّ البياتيّ قد روى هذه الحادثة الجواهرية لثلة من الأدباء المصريين، وعلّق بطريقة ذكية وطريفة على الكثير مما كان يحدث ثقافياً وأدبياً في البلد، ولم تكن لديّ فكرة لتسجيل أحاديثه في ذلك اللقاء الطويل وهي خسارة كبيرة لي طبعاً .

ثم في اليوم التالي اتفقنا أن نمرّ إلى مقر إقامته في بيت ابنه ونأخذه إلى دار الشؤون الثقافية حيث كان يحتفي به هناك الشاعر عدنان الصائغ، ومجموعة من أدباء دار الشؤون، تركته بعد ذلك هناك وغادرت إذ كان عليّ أن أكون في المطار في الساعة السابعة مساءً لأغادر إلى القاهرة، وقد حمّلني وصية أن أمرّ إلى دار الشروق في القاهرة لأبلغهم رسالة ما، وفعلاً بعد يومين من وصولي القاهرة أوصلت رسالته إليهم .

لم ألتق البياتيّ بعد ذلك لكنني اسمع أخباره بعد أن استقرّ في عمّان وجلساته الشهيرة في الفينيق، لكنني حين زرت عمّان بعد ذلك والتقيت في إحدى الجلسات بالقاصّ والروائيّ الأردنيّ قاسم توفيق، أخبرني بأنّ لديه كلاماً يهمني جداً لكنه للأسف غير موثّق بنشرٍ في صحيفة أو مجلة، وهو حديث شفاهيّ، وحين طلبت منه الإفصاح قال بأنّ البياتيّ في إحدى جلساته وفي حديث عن نقاد شعره قال بأنّ محمد صابر عبيد هو أفضل من كتب عن شعره، وكم تمنّى قاسم

لو أنّ هذا الرأي منشور، لكنني قلت له المهم عندي أنّ البياتيّ قاله عن قناعة ولا يهمني نشره مطلقاُ، غير أنني فرحت بذلك كثيراً وأنا على بُعد سنوات كثيرة من آخر لقاء بيني وبينه امتدّ لساعات تسع قبل أكثر من عقدين من الزمن .

اكتشفت في تلك الساعات أن البياتيّ قليل النوم جداً، ومشّاء كبير، ومتحدّث كبير لا يعجز من رواية الحكايات وطرح الآراء والإجابة على الأسئلة، وأذكر أنني سألته عن قضية الحوارات والمقابلات الصحفية التي تُجرى معه، إذ ألمحت إليه أنني وجدت بعض الإجابات سريعة وتفتقر إلى الثراء الذي يوازي سمعته وشهرته بوصفه أحد روّاد القصيدة الحديثة، في حين نقرأ المقابلات والحوارات الصحفية مع الكثير من الأدباء الغربيين لنجد كم هي ثرية وغنية وتحمل آراءً بالغة الأهمية بشأن الثقافة والكتابة والإبداع وكلّ شيء، فأجابني بأنّ معظم اللقاءات التي تُجرى مع الأدباء العرب يقوم بها صحفيون عاديون لا يحتاجون كلاماُ معمّقاً، وبأنّ الأدباء الغربيين ينظرون إلى هذا النوع من النشاط الثقافيّ بأهمية كبيرة، لذا فهم لا يجيبون على الأسئلة مباشرة مثلنا، بل يحملونها معهم ويخططون للإجابة عليها كما يخططون لكتاباتهم الإبداعية، فمن الطبيعيّ أن تأتي إجاباتهم على هذا المستوى من الثراء .

حين تنظر إلى البياتيّ عن قرب تكتشف فعلاً أنه شخصية غير اعتيادية، وجهه يوحي لك أنه محارب قديم يشبه البحّارة المدمنين على ركوب البحر، محتشد بالتجارب والرؤى والأفكار ومشاريع الكتابة، متحفّز ويقظ كأنه ينتظر معركة فاصلة سيخوضها بين لحظة وأخرى، لكنه في الوقت نفسه هادئ ومتفاعل وإيجابيّ لا يُشعرك بالخوف أو الريبة، ملامحه كثيفة وعميقة ومعبّرة، له صديقان حميمان ربما أقرب من كلّ أصدقائه هما السيجارة والكأس، يدافع عن أنموذجه الشعريّ بشراسة وعنف، بارع في التنكيت ولاسيّما حين يتعلّق الأمر بالشعراء، حكّاءٌ شرهٌ لا يملّ من الحديث مطلقاً، تشعر وأنت تسير بجانبه أنه بوسعه أن لا يتوقّف أبداً، يمتلك دقّة ملاحظة غريبة فهو ربما يلاحظ كلّ شيء بلا استثناء، ويسأل عن كلّ ما يشاهده ولا يعرفه جيداً، لا يهمه شيء في الحياة قدر شعره لذا فهو يسخّر كلّ شيء في خدمة شعره وقضاياه، وجهه عميق وشاسع ومترامي الأطراف ولا ينقصه الغموض، ورفقته محببة فيها قدر معقول من العفوية، وشخصيته مركّبة لا يمكن تفكيكها بسهولة، ولا أدري لماذا حينما كنت أتملّى وجهه جيداً أعتقد أنه سيعمّر طويلاً، لكنه مع ذلك فاجأني بموت أحسبه سريعاً ومباغتاً.

عبد الرزاق عبد الواحد

إذا ما قُدِّر لأحدنا في واقعه أو متخيّله أن يرى ديوان شعر يمشي على قدمين، فليسارع إلى اليقين بأنّه رأى عبد الرزاق عبد الواحد، وليتّجه إلى قلبه فوراً ليطمئنه بأنّ هذه الرؤية هي بشير خير. فإن كان وطنه ضائعاً مثلي سيجده، وإن كان على خصام مع الحبيبة سيتلقّى فوراً وردة بيضاء منها، وربّما قبلة، وإن كان عقيماً أو كانت عاقراً فثمة نبوءة صافية تحمل زهرة طفل هي في طريقها إليهم.

عبد الرزاق عبد الواحد والشعر كائنان يغذّي أحدهما الآخر بالحرية والأصالة والجمال والكبرياء، أينما حضر عبد الرزاق عبد الواحد كان الشعر ينهض بقامة رهيفة، وينشر إيقاعه الخلاّب في الأرجاء كلّها، شاعر طائر يحلّق بمئات القصائد، من فراديس ((طيبة)) حيث يتألق المكان بفوانيس الشعر وتسمو العاطفة إلى لغة تختزل الكون في أنقى صورة، إلى ((خيمة على مشارف الأربعين)) تلك التي تجمع في فيئها براءة الذاكرة وتطلّع الحلم، مروراً بـ ((يا صبر أيوب)) الصيحة التي مازال صداها يتردد في عراق اليوم، وهي تخترق القلوب والعقول والألسنة، لينفد صبر أيوب عمّا قريب لعدم قدرته على إكمال الدرس الإلهيّ، حيث تظلّ الحكمة ناقصة "والمصير مجهولاً". وصولاً إلى مناجاة بغداد من هنا من أختها الشام، وهي تبكي ظفائرها التي غزاها الشيب والجدب والتقصّف، وداهما النسيان، فلم تعد تفرّق بين دجلة والفرات.

وظلّ عبد الرزاق عبد الواحد يحمل قيثاره ويغني ألمه في أعماق التاريخ. يا إلهي إذا كانت هذه حصة العراقيين من العذاب والألم والموت فماذا تبقى للعالم إذن؟

عبد الرزاق عبد الواحد حياة شعرية كاملة، بجنتها وجحيمها، أرضها وسمائها، حكمتها ونزقها، صحيحها وخطئها، أفيائها وقفارها، حقيقتها وتيهها، واقعها ووهمها، وضوحها والتباسها، تجلّيها وخفائها، برهانها وندمها ... حياة شعرية كاملة مرّت على العصور كلّها والأماكن كلّها والضمائر كلّها، لتقول كلمتها التي نقلتها أمواج من فجر الشعر العربيّ إلى مسائه الجميل هذا.

لعلّ مما يجب الالتفات إليه إنّ الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد لم يضعه الدرس النقديّ ضمن جيل معيّ، من أجيال الشعر العربيّ لأنه نسيج وحده، فهو جيل شعريّ اسمه عبد الرزاق عبد الواحد لا يضمّ سواه.هل أخطأ في اختياراته الكبرى وخسر شعرة فرصاً مهمة لإنجاز متن شعريّ

أصيل في الشعرية العربية؟ هل بدّد كثيراً من كنزه الشعريّ الخصب في الهواء؟ هل أخلص إخلاصاً مثالياً لتجربته الشعرية وسخّر لها كلّ شيء؟ معقّدة هي الأسئلة المشاكسة . وبما القاسية . التي يستحقها الشعراء وهي تتقلّب دائماً حيرى في سماواتهم بلا جواب.

عبد الرحمن مجيد الربيعيّ

كيف يمكن النظر أو التعامل مع مبدع خصب ومتعدد في نصّه مثل القاصّ والروائيّ والشاعر والناقد والصحفيّ المتمرّس عبد الرحمن مجيد الربيعيّ؟ لا شكّ في أنه اسم ثرّ ومختلف ومحتشد ومثير وإشكاليّ أيضاً، أثار ويثير وسيبقى مثيراً للكثير من الجدل والنقاش والقراءة على أكثر من صعيد وفي أكثر من مستوى.

يمكن النظر إلى الربيعيّ صاحب النصّ الإبداعيّ المتعدّد على أنه يمثّل حراكاً ثقافياً واسعاً وعميقاً، وتنطوي الكثير من طروحاته على سجال كثيف وإشكاليّ أيضاً يتمتّع بالحدّة والمرونة معاً، وقد استطاع أن يثير الشارع الأدبيّ والثقافيّ العربيّ على مدى العقود الأربعة الأخيرة بكلّ وعي ونشاط وحيوية.

ربما تكون رؤيتي الشخصية له على نحو مركزيّ من خلال أعماله وما كُتب عنه وما سمعت عنه من المحبين والحسّاد، لكنّ لقاءاتي به . مع قلّتها . عززت الكثير من هذه التصورات وأضافت تصورات جديدة، وحين بدأنا نتبادل الرسائل مؤخراً تكشّفت لي جوانب أخرى في شخصية هذا المبدع المتعدد، أسهمت في تعزيز الكثير من تصوراتي السابقة وأضافت تصورات جديدة مهمة على أكثر من صعيد، كوّنت رؤيتي الواضحة له.

ونحن طلبة في السنة الأخيرة من الدراسة الجامعية الأولية عام ١٩٧٩/١٩٨٠ في كلية التربية بجامعة الموصل، درّسنا أستاذنا الراحل د. محمد قاسم مصطفى رواية ((الوشم)) للربيعيّ في مادة دراسية كانت تسمّى حينها ((كتاب حديث))، وكان أستاذنا يتراسل حينها مع الربيعيّ ويقرا لنا رسائله، وأمضينا فصلاً دراسياً رائعاً ونحن نناقش الشخصية المأزومة المحبطة سياسياً . الجديدة روائياً . ((كريم الناصريّ))، الذي أصبح فيما بعد أنموذجاً روائياً تلقّفه الكثير من الروائيين العرب الذين اشتغلوا على هذا النمط الشخصانيّ، ونؤكد هنا أنّ هذا الأنموذج الروائيّ الشخصانيّ هو أنموذج ((ربيعيّ)) بامتياز.

غادر الربيعيّ العراق مع بداية دخولي الوسط الأدبيّ تقريباً، وكانت لي معه لقاءات عابرة في مهرجانات المربد السنوية، ومن ثمّ لقاء أوسع قليلاً في ملتقى السياب في البصرة، وكان حينها

حريصاً على التبشير بالنقاد الجدد على وجه التحديد حيث كتب عن ذلك في بعض الصحف مشيداً ببعض الأسماء الجديدة.

يتميز الربيعيّ بشبكة مواصفات فريدة لا يمكن أن تتحقق في غيره، يتمثل أهمها في سعة أفقه، وحركته الدائبة المنتجة، وعلاقاته الأدبية والثقافية الواسعة، وإخلاصه وحرصه على ديمومة أدبه إذ هو بلا شكّ أديب مخلص لأدبه مثلما هو مخلص لوطنه وأصدقائه، وأحسب أنه ليس لديه شيء آخر غير الأدب يكرّس حياته كله لخدمته.

في لقاءاتي القليلة معه أواسط الثمانينيات لمست منه أنه يريد أن يغادر العراق على نحو شرعيّ يليق باسمه وتجربته، كان مصراً بشكل كبير على المغادرة إذ كان قرار المغادرة كما يبدو لي وقتها حاسماً لا رجعة فيه، وربما كان لديه عقد عمل في مطبوع في الخارج ذلك الوقت.

من النوافذ التي اشتغل الربيعيّ على فتحها مع أصدقائه هي نافذة الرسائل، وهي نافذة أعتقد أنها تنطوي على قدر كبير من الأهمية والخطورة ليس على صعيد جانبها الإنسانيّ والعاطفيّ النوعيّ، ولكن على صعيد قيمتها الأدبية والثقافية والاعتبارية، ولاسيما حين تكون بين ألأدباء والمثقفين والمفكرين.

كان يطلع أصدقاءه من خلالها على ما ينتج وما يكتب عنه وما يجري في الساحة الأدبية العربية عموماً، يرسل للكثيرين من أصدقائه الكتب والمجلات والرسائل بدأب وحبّ والتزام وحرص لا يتميز به الكثير من الأدباء الذين غادروا الوطن، لا بل قلّة منهم يدرك أهمية ذلك وضرورته بوصفه جزءاً من رسالة الأديب التي يجب أن تكون بعيدة عن التمركز السلبيّ الشديد والقاهر حول الذات، وتنفتح على خيال ثقافيّ واجتماعيّ يرى الذات في مرآة الآخر ولا يقتصر على رؤية الذات من خلال التجوهر القارّ الأنانيّ للذات.

بهذا يكون الربيعيّ عنواناً لنشاط خلاّق لا يعرف السكون والهوادة والكسل، إنه من دون أدنى تحفّظ من العلامات البارزة الاستثنائية في الإبداع العراقيّ، على مستوى الكمّ الإنتاجيّ ونوعيته وتعدده، وعلى مستوى الحال الثقافية التي هو عليها أو يحاول صناعتها في المشهد الثقافيّ والأدبيّ العربيّ.

لعلّ أبرز الخصائص النوعية التي يتميز بها إيمانه المطلق بالكتابة، وقناعته بأنّ الاستمرار في الكتابة ما هو إلا استمرار للحياة، لذا فإنني أعتقد أنه لا يمكن تصوره بلا كتابة وعمل وإنتاج وقراءة. وعلى الرغم مما يبدو عليه من عنف أحياناً في آرائه تجاه بعض الظواهر التي هي

بحاجة إلى صراحة وكشف ونقد وتعرية، إلّا أنه في حقيقة الأمر طيّب جداً كما يظهر في رسائله الكثيرة لأصدقائه، ومنها رسائله المحبة لي.

وسأجيز لنفسي هنا التقاط مقاطع من رسائله لي:

في رسالة بعثها إليّ بتاريخ ٢٠٠١/٤/١٢ يقول:

أخي العزيز د. محمد صابر عبيد

محبتي وشوقي

سعدت برسالتك وهي تحمل الدليل على أننا كمبدعين ومواطنين عراقيين كيان واحد وقلب واحد حتى وإن تباعدت بيننا المسافات. إنني أحمل عنك انطباعاً جميلاً وطيباً مبدعاً وإنساناً، وأحاول أن أتابع ما تكتب . وخاصة على صفحات مجلة عمّان . ونقلت رأيي لرئيس تحريرها الصديق عبد الله حمدان.

وفي رسالة أخرى بعثها إليّ بتاريخ ٢٠٠١/٧/١٠ يقول:

صديقي وأخي د. محمد صابر عبيد

تحياتي

سعدت برسالتك وبوصول الكتاب إليك وما ناله من اهتمامك واهتمام الأصدقاء.

آه لو تعرف كم أنا مشتاق للوطن والأهل والأصدقاء.

لعلّ فرصة ما تسنح لنلتقي.

ثم يقول في نهاية الرسالة:

لكم محبتي ولا بدّ أن نلتقي وقد تعافى وطننا وذهب عنه الحصار الظالم، فأنتم بصمودكم أبطال أكثر منّا نحن الذين نعيش خارج الوطن ولكنه مقيم فينا.

وفي رسالة أخرى بعثها إليّ بتاريخ ٢٠٠٢/١١/٩ يقول:

صديقي وأخي د. محمد صابر عبيد

تحياتي ومحبتي لك

شكراً لعنايتك واهتمامك بكتابي وتوجيه طلبتك وأصدقائك لقراءتها والدليل ما وصلني من الأخ خليل شكري هياس.

أودّ أن أخبرك أنني أنشر في حلقات كتاباً وصلت إلى الحلقة (٥٠) منه ويحمل عنوان ((حديث البدايات))، الذي أركّز فيه على الطفولة والقراءات الأولى والمناخ السياسيّ والاجتماعيّ، وتجد الحلقات صدى طيباً هنا (ينشر أسبوعياً في مجلة الإذاعة والتلفزة).

وفي رسالة أخرى بعثها إليّ بتاريخ ٢٠٠٦/٥/٢٨ يقول:

عزيزي د. محمد

تحياتي

إليك هذا المقال الذي صدر مؤخراً عن ((أيّة حياة هي؟)) لعلّه يكون مفيداً لك.

سأكون سعيداً جداً بكتابكم عني فالتكريم المهم يأتي من أهلنا وأوطاننا.

أخبرك بأنني أنجزت كتاباً جديداً إلى حدّ ما وسميته ((وجوه مرّت ـ بورتريهات عراقية))، وربما أرسله إلى دار الآداب، كما أنّ لديّ رواية جاهزة طلبوها مني.

مازلت تحت العلاج، إبرة كل شهر لثمانية أشهر أخرى، وأحسّ بأنني أفضل.

سيبقى الهاتف بيننا وسأجهزّ لك الكتب التي وعدتك بها والتي صدرت عن تجربتي الكتابية.

محبتي لك وتحياتي للأصدقاء.

مقالك عن زوجتي مهمّ جداً وقد سُعدت به.

ولعلّ من الواضح جداً تجلّي روح المحبة العراقية الإنسانية الصافية على نحو فعّال فيما يكتب وفيما يضمر أيضاً.

عبد الستار ناصر

حين سمعت باسم عبد الستار ناصر أول مرة في حياتي، ولم أكن آنذاك على معرفة واضحة وكافية ومستوفية وعميقة بالجوّ الأدبيّ العراقيّ، في حين كنت على علاقة وثيقة بالقراءة، كان اسمه لامعاً بين كتّاب القصة الذين تستهوينا قراءتهم في الصحف والمجلات وهو يكتب بجرأة عن الحب والنساء وكلّ ما كنّا نتطلّع إليه بلهفة، وحين رأيت صورته في إحدى الصحف تراءى لي أنّه يشبه أبطال السينما الرومانسيين، فهو جميل وبهيّ بكلّ ما فيه، وهكذا صرت واحداً من قرائه حتى بدأت أتعرّف رويداً رويداً على المناخ الثقافيّ العراقيّ، ثم أخذت أنشر بعض المقالات في الصحف العراقية، وبعدها في مجلة الطليعة الأدبية حيث فاجأني مبكراً القاص خضير عبد الأمير رئيس التحرير بأن كلّفني بكتابة نقد عن قصائد العدد السابق، إذ كان اسمي قد سجل حضوراً جيداً بوصفي ناقداً شاباً طالعاً بقوّة من محافظة نينوى، في تقليد من التقاليد الجميلة التي تتبعها المجلة تشبّهاً بمجلة الآداب البيروتية وغيرها من المجلات الأدبية العريقة، وفي تلك الزيارة وقد كانت الأولى أو الثانية من عام ١٩٨٧ رأيت عبد الستار ناصر خارجاً بكلّ رشاقة من مجلة الطليعة الأدبية بصوت عالٍ يهاجم فيه أحداً ما على ما أذكر، هو كما في الصورة ممثل سينمائيّ بطلعته وإشراقته وقامته وحركته المموسقة.

القصص التي تتناقلها الأفواه عنه أواسط الثمانينيات حيث بدأت أدخل هذا الوسط العجيب بهدوء وبطء ورويّة، تتحدّث بقدرٍ من الأسطرة عن جرأته ونسائيته وعشقه للقصة القصيرة وولعه بالسفر والمقامرة والمغامرة، وأنا أصغي بشغفٍ لكلّ ما يُقال وأتابع ما يكتب في الصحف والمجلات، لم تكن مقالاته بأقلّ جمالاً وحِرَفيّة من قصصه، وحين أطالع صحيفة أو مجلة فيها اسمه التهمها فوراً قبل أيّة مادة أخرى، أحببت طريقته في الكتابة وشغفت بها، وربما أكون قد تأثرت بها على نحو ما.

اللقاء الأول الواضح بيننا كان في جامعة تكريت يوم عقدنا ندوة عام ١٩٩٦ بعنوان ((القصة القصيرة في عالم متغيّر)) في كلية التربية للبنات حيث كنت أستاذاً فيها، وأضفى حضوره على ندوتنا جمالاً وقيمة وأهمية، وألقيت في جلسة الافتتاح كلمة الندوة وعنوانها ((بيان سرديّ في مواجهة الجحيم)) لم أرحب فيها بأحد كما هي عادة كلمات الافتتاح وربما زعل (المحافظ) الراعي

للندوة وقتها، وعلّق عبد الستار على كلمتي أجمل تعليق قائلاً: بعد هذه الكلمة ينبغي أن ترفع الجلسة الأولى للندوة (وفيها كلمات ومحاضرات نقدية) لأنّ أيّ كلام بعدها لن يكون له معنى، ثم حدّثني عن إعجابه بها حديثَ عارفٍ مبتهجٍ: أنا أعرف كيف تُنسج مثل هذه الكلمات التي لا ينجح كتّاب كبار في نسجها، غير أنّ أجمل ما قاله لي: ((لو كنتَ في بغداد يا محمد لكنت أقرب أصدقائي)) بعد أن سمع جملة من تعليقاتي الساخرة على بعض أصدقائنا، ونحن نتناول طعام العشاء في شقّة صديقنا طبيب الأسنان سعد الصالحي في المستشفى العسكريّ المكيّف والمرتّب، مع ثلّة من قصاصي ونقاد العراق، فرج ياسين وباسم عبد الحميد حمودي وعبد الستار البيضاني وآخرين، وسعد الصالحيّ يعدنا بأنّ عشاء رئاسياً سيصلنا بعد قليل، وإذ لم يصل هذا العشاء الرئاسيّ المنتظر اكتفينا بأفخاذ الدجاج المشوية وحمدنا الله على أنه أنقذنا من هذا العشاء الرئاسيّ المنتظر المتغلغل في مخيلة سعد بلا طائل.

التقينا بعدها في بغداد أكثر من لقاء في مناسبات أدبية وكان يصرّ عبد الستار على أن أسمع شهاداته الأدبية العاصفة في كلّ مناسبة أكثر من إصراره على ما كنت أنتظره من احتفاء بي يذكّره بأنني قد أكون أقرب أصدقائه لو كنت في بغداد، فقد نسي ذلك تماماً، لكنني كنت أشعر بحميميته تجاهي حتى تأكد شعوري هذا جلياً حين زرت عمّان عام ٢٠١٠ والتقيته صحبة زوجته القاصة المبدعة هدية حسين، وقد حضرا محاضرتي التي ألقيتها في رابطة الكتاب الأردنيين عن الرواية العربية، وحضرها على ما أذكر من أصدقائنا إبراهيم نصر الله وسميحة خريس وصبحي فحماوي وزياد أبو لبن وإبراهيم الخطيب، وقدّمني فيها الدكتور حسن عليان.

ثم دعاني إلى شقّته وقضينا سهرة جميلة أهداني فيها بعض كتبه التي أعطيتها لطالب الدكتوراه جابر حسن هرم وهو يعدّ أطروحة دكتوراه عن رواياته، وأهداني النسخة الأولى من مجموعته القصصية المنتخبة ((السيدة التي دخلت)) بعد صدورها بيوم واحد من المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وفوجئ في اليوم التالي بأنني قرأت القصص كلها في أكثر من ٢٥٠ صفحة وأناقشه في تفاصيلها ووصفني حينها بأنني قارئ جبّار، وكان يزورني في مقر إقامتي في الفندق يومياً تقريباً، وحين أزف موعد عودتي إلى العراق حاول استبقائي في ضيافته الكريمة.

في شقّته أخرج هاتفه الجوّال وقال لي يا محمد بوسعك أن تكلّم الآن من تشاء في أيّة بقعة في العالم، لتكن هذه الليلة ليلة الاتصال بمن تحب، واقترح عليّ أولاً أن نتصل بصديقنا المشترك الدكتور حسين سرمك في دمشق، تحدثنا معه طويلاً، ثم قال لي تذكّر من تريد أن تهاتفه الآن

ولديك رقم هاتفه، وربما اكتفينا حينها بمهاتفة حسين سرمك، وتركنا وقتنا الآخر للحديث عن الأدب والثقافة والأصدقاء والذكريات حتى ساعة متأخرة من الليل.

حدثّني عن قرب موعد هجرته إلى كندا وأحزنني ذلك بعض الشيء على الرغم من أنه بعيد عني سواء أكان في عمّان أو كندا، لكنه في عمّان أقرب بطبيعة الحال وأنا أزورها على الأقل في السنة مرّة، لكنّ صحته تحتاج إلى علاج متقدّم ومجانيّ ربما توفره كندا على أيّة حال، وسمعت بعد حين هجرته إلى هذه البلاد البعيدة، وأقرأ بشغف ما يكتبه في جريدة الدستور الأردنية بين آونة وأخرى، وأهجس معاناته وصبره بعد أن مضت الدنيا به إلى ما لا يرغب، أو على الأقلّ في الوقت غير المناسب، هل لي أن أقول إنّ عبد الستار ناصر كان يستحق أكثر من هذا بكثير، ولكن ما فائدة أن أقول ذلك والمبدع في بلداننا الثرية العامرة يظلّ فقيراً معدماً لا يُعالج كما يجب ألّا حين يحصل على لجوء في دولة غربية تعالجه على نفقتها، وتمنحه جنسيتها وجواز سفرها وتمنحه مواطنتها وإنسانيتها بعد إذ نسيها من فداحة فقدانها طيلة حياته؟

أحزن كثيراً يا عبد الستار حين تخبرني هدية أنك لا تستطيع الكتابة إلّا بجهد جهيد، أنت الذي خُلقتَ للكتابة، فلقد خلقك الله لتكون كاتباً غير أنه لم يعتنِ بك كما يجب لتقول كلّ ما عليك أن تقوله برحابة وزهو ورخاء وعافية في وطنٍ معدٍّ للاستباحة دائماً اسمه (العراق)، عمق حضارته كما يزعمون سبعة آلاف سنة لم نرَ منها شيئاً سوى ما تحمله بكفاءة نادرة بطون المجلّدات الكبيرة من كتب التاريخ والحضارات، وطن جميل حمل على أكتافه أحزان العالم كلّها بصبر أكبر من صبر أيوب، وبسالة أقوى من بسالة عنترة، وفقر وبؤس وحماقة وقهر وعبودية لا مثيل لها، لماذا لم تكن الآن في بغداد التي تعشق، أنت وفوزي كريم من منفاكما ومحمود جنداري من دنياه الأخرى ومن تحب من الآخرين من منافيهم أو قبورهم أو ضياعهم أو متاهاتهم التي لا حدود لها، ولك فيها فيلّا واسعة بمسبح وخدم وحشم وأبّهة وكلاب حراسة ومطار صغير خاصّ، ويزعجك المسؤولون باتصالاتهم المتكررة خشية أن تكون بحاجة إلى شيء ما ولا يُقضى لك بلمح البصر كما في قصص الفانوس السحريّ الذي طالما حلمنا بامتلاكه ولو مرّة واحدة في حياتنا، لماذا أنت هناك في المنفى والعزلة والمرض والتقشّف والبرد الشديد لا تعرف أحداً ولا يعرفك أحد، لماذا هذا العذاب الذي لا ينجو من عهرهِ أحد، فكلّ الاختيارات يا صديقي خاطئة كما يقول يوكيو ميشيما، أن تبقى في بلدك اختيار خاطئ، أنت تهاجر اختيار خاطئ أيضاً، فماذا نفعل يا تُرى؟؟؟

محمد القيسيّ

الشعراء كثرٌ في كلّ زمان ومكان، وربما الأصدقاء في فضاء الزمان والمكان أيضاً، لكنّ الشعر في مقياس الإبداع النوعيّ الخلاّق والمختلف والمغاير قليل، مثلما الصديق الواحد المفرد في مقياس القلّة الهائلة صعبٌ ونادرٌ . هكذا هي المعادلة الصعبة الإشكالية الشائكة، التي تجعل من المرء المولع بالبحث والتقصّي وشهوة صوغ الأسئلة أكثر حيرة أمام فيض الكثرة، وبراعة القلّة، وجدل التناوب الساخن في إثارته وحراكه بين المتضادّات . لذا فإنّ (الموت) عادةً ما يأخذ الشعراء مهما كثروا وتعدّدوا وتنوّعوا وتوثّبوا لكنه لا يأخذ الشعر مهما قلّ وتخفّى وندر، ويأخذ الأصدقاء مهما تعاظمت أعدادهم وتباينت نواياهم لكنه لا يأخذ الصديق الواحد مهما انفرد، فأمام كثرة فنون الاختيار وزحمتها تبقى القصيدة الخلاّبة هي الأمنع والصديق النوعيّ المفرد هو الأصعب.

الشاعر محمد القيسيّ تمكّن من أن يكتب اسمه على هذا الشعر القليل بثقة ومهارة ووعي ومقصدية، وينفرد في صداقته المتقشّفة الزاهدة لمن يحب بأناقة ورقيّ وهدوء وثراء، وإذا كان الآخرون . مهما تعدّدوا وتنوّعوا وتباينوا . قد لا يختلفون كثيراً على حضوره الفاعل والجوهريّ في مسلّة الشعر القليل، فربما اختلفوا كثيراً جداً على وجود أصدقاء مفردين له، لأنهم لا يرَون إلّا ما يرَون من انعكاس صورته في مرايا ضمائرهم ووجداناتهم، فلا يرون إذن إلّا ما يعجبهم ويروقهم أن يروا، وقد يسهم هو نفسه في تسويق ذلك المناخ المعادي وترويجه وإشاعته وتداوله لأسباب شتّى، وقد لا يكتشف هو أيضاً قيمة أن يكون له صديق بارع وقت الحاجة إلّا بعد حين.

لا بأس إذن إذا كانت المسألة في حدودها المتعاهد عليها . كما يقال عادة . نسبية لا ثباتَ فيها ولا استقرار ولا دوام، مثلها مثل كلّ المعاني الكبرى والخيارات الكبرى في الحياة، ولا سبيل . أمام هذا الإشكال الذي لا يمكن مقاربة التباسه، ومقارعة غموضه، وتفادي تشوّشه، والتغاضي عن تحدّيه . إلى الخوض في تفاصيل هذه المسألة الشائكة بلا جدوى ولا طائل، خشية الوصول إلى تخوم قراءة ناقصة قد تضاعف مساحة الالتباس والغموض والتشوّش والتحدّي، وتقود إلى موت الحساسية في الأشياء، ومن ثم إعلاء فكرة الموت على حساب فكرة الحياة.

لنقل هنا إنّ القضية . ضمن هذه الحدود وعلى وفق هذه السياقات . شخصية جداً تتعلّق برؤية شخص (مثلي)، بعيد عن الساحة اليومية الملتهبة بالمحبة والمودّة مثلما هي ملتهبة بالحسد والغيرة، تلك التي يتحرّك فيها القيسي ويعيش ويكتب وينشر ويصخب ويهدأ ويتأمل ويجنح ويقترف الأخطاء بلا هوادة، على ما تتيحه هذه المسافة الحرجة من حيوية في القدرة على الاحتفاظ بمفهوم القلّة وتعريف الندرة، على النحو الذي يمكن أن تتكشّف فيه المفاهيم عن قدرٍ معقولٍ من الوضوح والاستبيان .

الشاعر محمد القيسيّ شاعر وكاتب وإنسان غزير وثرّ ونوعيّ في آنٍ، فضلاً على كونه من الكتاب العرب القليلين الأحرار المتفرغين للكتابة بعيداً عن استعمار الوظيفة وإكراهاتها الإنسانية الدامغة، وقد أمضى في تجربة الكتابة ما يقرب من أربعة عقود قبل رحيله المبكّر متألقاً في عالم الكتابة والإبداع والحياة، ترك فيها أكثر من عشرين مجموعة شعرية بدأت بمجموعة ((راية في الريح)) عام ١٩٦٨ وانتهت بمجموعة ((منمنمات أليسا)) عام ٢٠٠٢، وترك في مجال الكتابة النثرية الموازية للكتابة الشعرية سبعة كتب متنوعة، ابتدأت بكتاب ((أرخبيل المسرّات الميّتة)) عام ١٩٨٢ وانتهت بكتاب ((أباريق البلّور . يوميات صحراوية .)) عام ٢٠٠٢.

فضلاً على كتابين للأطفال، وكتاب آخر يمزج بين الشعر والنثر هو ((ثلاثية حمدة)) الذي يضمّ ((كتاب حمدة . كتاب الابن . كتاب أوغاريت))، ورواية سيرذاتية بعنوان ((الحديقة السريّة)) صدرت عام ٢٠٠٢ أيضاً .

لا شكّ في أنّ هذا الثراء وهذه الغزارة وهذا الإبداع الخصب الذي كانت عليه تجربة القيسي . ثقافةً وكتابةً وحضوراً .، لا يمكن أن يأتي/تأتي من دون وجود مشروع ثقافيّ ماثل في ذهن الكاتب ومتجسّد في روحه ومخيلته ورؤيته، يسنده ويوفّر له الطمأنينة ويستفزّه ويحرضّه على استمرارية العمل والإنجاز والحياة، بصرف النظر عن طبيعة وإشكالية الحساسية المفرطة التي تتحكّم في مسيرة الشاعر تجاه الأشياء والأشخاص والظواهر والأفكار والرؤى، مما يلقي بظلّه الثقيل على حراكه وتطلّعه ومشروعه في التمتّع بمباهج الكتابة والحياة والحرية، ويحدّ من روح المغامرة الجمالية التي تسهم في إنجاز المشروع بأعلى درجات التمكّن والإبداع .

المدوّنة الشعرية والنثرية التي تركها القيسيّ شاهداً حيّاً على تجربة واسعة تنطوي على قدر كبير من الإشكال والخصب والإثارة، تصلح لأن تخضع لغير دراسة وغير بحث وغير قراءة، تسعى إلى وضعها في مكانها اللائق الذي تستحق، على أن ترصد الظواهر والإشارات

والعلامات بروح المسؤولية النقدية والعلمية العالية، وتشتغل على آليّات منهجية بوسعها الحفر داخل أعماق النصوص والخوض في مياه المتون، من أجل أن تصل العين الراصدة بالنتيجة إلى حقل مثمر يحكي ثراء التجربة وتعدديتها.

بدأت علاقتي الأدبية بالشاعر محمد القيسيّ عبر ملاحظتي النقدية المركّزة لغزارة إنتاجه مع تجدّد شبه دائم فيه، بحيث نادراً ما يكرّر نفسه ويعيد إنتاج نصّه، في حدود ما كنت قد اطلعت عليه من شعره المنشور غالباً في الدوريات بكثرة وبعضٍ من مجموعاته الشعرية، وكان هذا مدعاة إعجاب نوعيّ بتجربته التي بدت لي متميّزة، ورغبة في التعرّف إليه والإطلال المعمّق على جوهر تجربته.

فحدثَ أن راسلته على عنوانه في عمّان، وفوجئت بعد مدّة من الزمن وأنا أسهر في حدائق اتحاد الأدباء العراقيين في ساحة الأندلس في بغداد نهايات عام ١٩٩٩ صحبة عدد من الأصدقاء، وإذا بالصديق الكاتب والصحفيّ حسن عبد الحميد يدنو مني وهو يحمل حقيبة مضيئة قائلاً:

. هل تعرف ماذا أحمل إليك من عمّان يا صديقي؟

أجبته على الفور وبشعور يقينيّ لا أعرف كيف داهمني بقوّة وثقة وبراعة بأنّ القيسيّ بعث إليّ كتبه. فدفع إليّ بالحقيبة وقد حملت فعلاً أعمال القيسيّ الشعرية بالأجزاء الثلاثة، مع رسالة بيّن فيها أنه أرسل مع الأعمال الشعرية كتباً أخرى من كتبه النثرية لعلّ أهمها بالنسبة لي في حينها كتابه ((الموقد واللهب . حياتي في القصيدة .))، لم يرسلها حسن إلّا فيما بعد، وربما استبدّت به رغبة الاطلاع عليها ثم إرسالها، لكنه على أيّة حال بعثها إليّ بعد قليل من الإلحاح مع أحد طلبتي .

كنت أرغب أنّ أكلّف أحد طلبتي في مرحلة الماجستير في كلية التربية للبنات في جامعة تكريت . حيث عملي الأكاديميّ . بدراسة شعر القيسيّ، وتحقق ذلك فيما بعد وكان القيسيّ فرحاً بذلك، وأُنجزت الرسالة ونوقشت وأجيزت بدرجة تفوّق عالية بعد إذ كان هو مدعوّاً لحضور جلسة المناقشة، لكنه . للأسف . لم يحضر لأسباب وصفها بالصحية في رسالة لاحقة بعثها إليّ.

ومن ثمّ التقينا لقاءات عدّة كانت حميمية جداً، إذ ربما شعرنا (أنا وهو) بما يجمعنا إنسانياً وثقافياً وأدبياً ويضعنا على درجة القرب هذه من بعضنا، تكررت اللقاءات في بغداد وعمّان ودمشق، وكان يتحدّث لي بمتعة ورغبة تعرّف عالية على حياته وتجربته وهمومه وأسراره، كان

آخرها اللقاء الذي التقيناه مصادفة عام ٢٠٠٢ في دمشق، كنت مشاركاً في مؤتمر علمي أقامته كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق عن (الأدب وحوار الحضارات)، وكان هو يحضر معرض دمشق الدولي للكتاب.

بوغتُّ بوجوده في مقر اتحاد الكتاب العرب الكائن في المزّة وقد ملأ المكان ببهائه وقوّة حضوره، إذ رأيته عَرَضاً في غرفة الصديق القاصّ والروائيّ الجميل حسن حميد، الذي لم تكن لي علاقة به في وقتها وأصبحت أكثر من مجرد علاقة فيما بعد، فرحت لهذه المفاجأة السارّة واتفقنا على اللقاء في المعرض وسط مدينة دمشق.

جلسنا في اليوم التالي في كافتيريا مكشوفة وسط المعرض وشكا لي فوراً من فيضان الكتابة وجموح الإبداع الذي انفجر عنده على حين غرّة هذه الأيام، وربما كانت هذه إشارة فجائعية مثيرة إلى أنه يريد أن ينهي ما أمكن من مشاريعه المعلّقة بسرعة، قبل رحيل وشيك تجسّدت علامته في سماء الأفق .

ثم سهرنا مساءً في نادي الصحفيين وكأننا في احتفال خاصّ، واستمرّ القيسيّ متدفقاً في حديثه عن الموضوع نفسه، لكنْ بقلقٍ واضحٍ مشوبٍ بخوفٍ غامضٍ ومُريب وملتبس وشاحب، حتى ونحن نغادر النادي بعد منتصف الليل مشياً على الأقدام باتجاه الصالحية، حيث كنت أقيم في فندق (برج الفردوس) ضيفاً على جامعة دمشق، ويقيم هو في فندق اسمه (دار السلام) على ما أذكر . كان حديثه لائباً ومكسوراً ومشتّتاً ومثقلاً بالهموم والأسى، لكنه كان في الوقت نفسه متوثّباً ومشرقاً أكثر مما يجب، وهكذا كان هذا اللقاءُ اللقاءَ الأخيرَ الذي ودّعني فيه إلى غيابه الأبدي الذي طالما توقّعه.

تهاتفنا بعد ذلك وتراسلنا لكننا لم نلتقِ حتى سقطت بغداد بعد الاحتلال الأميركيّ لها، حيث تقطّعت بنا السبل وانشغلنا بالوضع الذي قلب الأمور رأساً على عقب، وفي بدايات صيف عام الاحتلال ٢٠٠٣ وحيث كنت عائداً من عملي في جامعة تكريت إلى الموصل في طريقي إلى محل إقامتي في زمار، وكنت على موعد مع صديقي الدكتور خليل شكري هيّاس في مقهى شعبي قرب جامعة الموصل . يتكرّر هذا الموعد تقريباً في كلّ عودة أسبوعية لي من تكريت يشاركنا فيها أكثر الأحيان الصديق الشاعر الدكتور فيصل القصيري .، أبلغني خليل بأسى عميق أنه قرأ في إحدى صحفنا المحلية أنّ الشاعر محمد القيسيّ في حالة موت سريريّ منذ أيام، وصُعقتُ حقيقةً للخبر المؤلم بعد إذ أطلعني عليه على إحدى صفحات الجريدة، وتأكدت من

صدقه فيما بعد من مصادر أخرى . وكنت أسأل وأستفسر وأسعى إلى إقناع نفسي أنّ القيسيّ قد يعود إلى الحياة بعد هذا الموت السريريّ المقيت، لكنّ أكثر من سألتهم عن حالة الموت السريريّ أكّدوا أنه لا نجاة بعدها إلّا بحصول معجزة، لكنّ المعجزة التي كان أملي في إمكانية حدوثها ضعيف جداً لم تحدث بطبيعة الحال.

وهكذا رحل القيسيّ الصديق والشاعر والإنسان في الوقت الذي حدده لنفسه من دون تأجيل، أي بعد عشرين عاماً بالضبط من كتابته قصيدة ((المنزل رقم ١٢)) عام ١٩٨٣ التي تنبأ فيها بأنّ موته سيكون بعد عشرين عاماً من تاريخها وكان ذلك عام ٢٠٠٣، حيث غابت المعجزة وصدقت النبوءة وخسرت صديقي الذي مازال في النفس الكثير للحديث معه، وربما تكون الكتابة عنه هو السبيل الوحيد للتعويض والرثاء والدعاء واستعادة حضوره الذي لا يمكن أن يغيب أو يموت.

إبراهيم نصر الله

لعلّ أناقة الشكل والفضاء والروح والحركة والرؤية التي تنبثق حارّة من وهج العينين الملهَمتين، الضاربتين في أعماق التاريخ والمكان والأسطورة، تعكس بالضرورة أناقة إبداعية صوفية، متجوهرة، بعيدة الغور، فائقة العصيان، ترسم صورة المبدع الحقيقيّ، وتُجلّيها، وتجعلها ساطعةً تنبثق من شرق الضمير وصميم الوجدان بلا جدال، هكذا هو صديقي الجميل الروائيّ والشاعر والمثقف الفنان إبراهيم نصر الله بامتياز.

قليلون جداً أولئك الذين يدخلون حارة القلب على نحو خاطف ورحب وجميل وكثيف ومثير مثل ضربة فرشاة على لوحة، أو مرور إصبع رشيق على وتر قيثارة، قليلون أولئك الذين بمجرد أن تصافحهم تسري في أعماقك قشعريرة المحبة والألفة والصداقة النادرة التي قليلاً ما تتكرّر، ونادراً ما تقف في هذا المدى السيّال عند حدّ، قليلون أولئك الرائعون، البارعون، الرائون، المحلّقون في الجهات كلّها، الذين يعرفون كيف يقدّمون أنفسهم وسيَرَهم الطائرة، وبراءة أحلامهم، ونایاتهم الغامضة الصادحة مطلقاً في جنّة الأعالي، والقادمة أبداً من ربيع الأقاصي، بكلّ ما يستشعرونه من خصب إبداعيّ فادح، يسكن تجاربهم وتفيض به رؤاهم ومخيلاتهم وتطلعاتهم وهَوَسِهِم العظيم بالجمال.

وأحسب أنّ صديقي إبراهيم من أفضل من أتجرأ على أن أقول بحقه مثل هذا الكلام وأنا على أندر ما أحتويه من حماسة وثقة وصدق، هل هذا هو شكل الأديب والفنان الذي نفتقده اليوم؟ أعتقد: نعم.

من العسير على أيّ مراقب محبّ . أو حتى غير محبّ . أن يجد فاصلاً بين سلوكه ومظهره، ثمة تماهٍ مموسق وعفويّ وملائكيّ بين كلّ مقومات شخصيته، يشتغل على أنموذجه بإخلاصٍ وإيمانٍ بأصالةِ وقيمةِ وضرورةِ ما ينتج، عمله مصيريّ في بعث فلسطين . التاريخ والجغرافيا والروح والأمل . في إبداعه لغةً ومكاناً وزماناً وتشكيلاً، لذا فإنك تستحضر فلسطين فوراً حيث هو يتحدّث عن الحب والمرأة والطبيعة والوجود والذاكرة والحلم والخيبة والاستلاب والنصر والأم والأب وشجرة الزيتون، والصوت الذي يتلبّث في سلّة الأيام هائجاً مائجاً جبّاراً ورائقاً أيضاً، مثل

صبح خريفيّ أبيض وصقيل دائم الحضور، ولحن فيروزيّ كلمعةِ الذهب على مرمى بصر من وجيف القلب، وصراع القلق، ورعب الكوابيس، وندى الأمنيات الحبيسة الخجلى.

حلمه المتنامي في صهيل الناي كالنجيل الأخضر ينكسر دائما، في سياق الهدر الإنسانيّ الهائل الذي تعيشه الحكاية العجائبية من ربيع المأساة حتى خريف الملهاة، لكنه سرعان ما تنبعث في صحرائه الروح، وتندلع في جبهته حرارة الرؤيا ليتجدد ويتبنين ويثرى ويتخصّب، وينطلق من بين يديك ومن خلفك ومن تحت أنفاسك كبرقٍ ملوّن خاطف مشتعل بالبشائر، أو كيمامةٍ ساحرةٍ توحي بالإثارة، وتغري بالحياة، وتَعِد بالأمل.

التقينا على الورق . طويلاً وعميقاً وأصيلاً ودافئاً . قبل أن يحصل بيننا أول لقاء في عمان ربيع سنة ٢٠٠٢، حيث كنت أشارك في مؤتمر نقديّ أقامته جامعة جرش الأهلية الأردنية، وكنت قادماً حينها من مؤتمر يسبقه بأيام عن التجربة الشعرية السورية أقامته جامعة تشرين في اللاذقية السورية، وحدّثته حين سهرنا في أحد مطاعم عمّان عن تجربة مدهشة لي في اللاذقية أدركَ من خلالها . على ما أظن . قوة حضور الأشياء الجميلة فيّ، على النحو الذي قرّبنا جداً.

وأستأذن صديقي إبراهيم في أنشر رسالة من رسائله لي وهي تصوّر طبيعة لقائنا على الورق قبل أن يحصل اللقاء الشخصيّ الأول بيننا بسنتين تقريباً، إذ جاءت رسالته مؤرّخة في شهر ٨ من عام ٢٠٠٠ وهذا نصّها:

أخي العزيز دائماً الدكتور محمد صابر عبيد

تحية طيبة

تحية كل ما هو جميل وطيّب وحرّ..

فرحت برسالتك الثانية، كما فرحت بالأولى، فقد حملت لي . على قلّة ما تحمل الرسائل وغيرها . صديقاً عزيزاً وأخاً مخلصاً في مشاعره النبيلة ورؤاه العميقة.

وأصارحك . أنني وبالرغم من كلّ ما أحمله تجاه هذه الحواجز التي تفصل البشر عن بعضهم من غضب ومقت . إلّا أنّ غضبي يزداد كلما اكتشفت صديقاً على الطرف الآخر من هذا الجدار.. يدقّ، ويحاول الوصول إلى طرفه الثاني . مثلي . ولا يستطيع.

لقد مزّقت السنوات الماضية الكثير من أرواحنا ووزّعتها، حتى لكأنّ حكاية (إبراهيم) مع الطير التي لا بدّ لها من معجزة، كي يأتيه الطير سعياً، لا بدّ منها اليوم.

ولأننا لا نملك من المعجزات الكثير، ولسنا على ثقة بأنّ ثمة أحداً غيرنا معنا، لذلك أكتب لك بكلّ محبة وصدق، آملاً أن يكون هذا الحب وهذا الصدق بوابة نتسلل عبرها حينما نشاء، وبالرقة نفسها التي تتسلل القصيدة فيها وتنساب من الروح باتجاه الأوراق البيض دائماً.

محبتي لك مع كامل تقديري

أخوك

إبراهيم نصر الله

في المرّة الأخيرة التي التقينا فيها قبل تسريب هذا البوح إلى فضاء الكتابة كان ذلك في منزله، وكنت في زيارة سريعة لعمّان حيث أشارك في مؤتمر ((ثقافة الصورة)) الذي أقامته جامعة فيلادلفيا الأهلية الأردنية، كان ذلك مساء ٢٠٠٧/٤/٢٥ وكنت أنا من اختار اللقاء في المنزل بعد إذ خيّرني بكرمٍ بين المنزل وأيّ مكان آخر في البلد.

ففي منزله الأنيق كلّ شيء يذكرني بالشعر والجمال والحرية وجذور الحكاية، الإيقاع الذي يملأ الفضاء بحساسية شعرية مرهفة، زوجته الرائعة الكريمة، ولده علي، ابنته مي، اللوحات التي تزيّن الجدران، الحديث الجميل الذي ينتشر على سحر المكان بعفوية وصدق وأصالة وعمق، الضيافة التي تتحوّل إلى حالة شعرية وهي تسهم في صياغة جوّ حميم يعيد ترتيب الأشياء على نحو غاية في الرفعة والإبداع والألق، وأخيراً الوقت الذي يمضي بسرعة مباغتة ليبلغ ساعات الفجر الأولى وكأننا لمّا نبدأ بعد.

أهداني في هذا اللقاء النسخة الوحيدة التي وصلته . ربما في اليوم نفسه . من ديوانه ((حجرة الناي))، وهو الجزء الرابع من مشروعه الشعري ((عواصف القلب)) وكنت مسروراً بغبطة طفولية نادرة بحصولي على النسخة الأولى، تُرى هل تختلف هذه النسخة عن النسخ التي ستأتي لاحقاً؟ لا أدري، ولكن ذلك كان شيئاً استثنائياً عندي لسبب شخصيّ جداً قد لا أتمكّن من تفسيره بدقّة، لكنني سأحتفظ بنكهته طويلاً وأنا أقرأه وأحاوره وأتفاعل معه تفاعلاً جمالياً يليق به وبصاحبه.

حين كتبت عن منجز إبراهيم نصر الله الشعريّ كتابي ((شعرية طائر الضوء)) كنت أحسب أنني قلت كلّ ما عندي في شعريته، أو على الأقل كلّ ما كنت أودّ ساعتها أن أقول، لكنني في كلّ قراءة جديدة أكتشف أنني لم أفعل ذلك تماماً فشعره ينطوي على الكثير من الإمكانات، على النحو الذي سأقول فيه وسيقول غيري الكثير، وما كتابنا أنا وزميلتي د. سوسن البياتي ((الكون

الروائي . قراءة في الملحمة الروائية الملهاة الفلسطينية .)) سوى تجربة تدخل في السياق نفسه، ولم تقل كلّ ما يجب أن يقال عن هذه التجربة الروائية الثرّة التي يشرف إبراهيم على الانفتاح على منعطف جديد فيها.

أعترف أنني كتبت عن إبراهيم وسأظلّ أكتب عنه بحبّ، ذلك أنّ العمل النقديّ حبّ بالدرجة الأولى، ومن دون توافر هذا الحبّ بأعلى حساسية ممكنة لا يمكن للعمل النقديّ أن يكون بارعاً ومتميزاً وأصيلاً، إنه لا يبتعد كثيراً عن حساسية العمل الإبداعيّ نفسه في هذا السياق، فهو منجز ينهض في أعلى درجات حماسه وتألقه المنهجيّ على الحبّ الذي يُخرِج آلة المنهج من فضائها الإجرائيّ الميكانيكيّ، ويدخلها في فضاء إجرائيّ محتدم بالنزعة الإنسانية ومتوهج بلهب الإبداع، وهو يلفح وجه القراءة بحرقته اللذيذة الضاربة في أعماق العطر الإيروسيّ الخلاّب الذي يفوح من الأرجاء كلّها فلا مناص.

كلّ ما كتبته وسأكتبه عنه كان ويكون رائده الحبّ أولاً، والاعتراف بالمنجز النوعيّ المتميز ثانياً، ونتيجة للتواصل الإنسانيّ القائم على الحوار والتقاط شفرة الإيقاع السحريّ المشترك ثالثاً، ورابعاً وخامساً وسادساً و.. و.. و..، نحو فضاء إنسانيّ وإبداعيّ خلاّق يذهب مباشرة إلى اللحظة الأسطورية التي تثمر فيها الشجرة، والمزاج الخاطف الذي تقرّر فيه الغيمة أن تتحول إلى مطر، والإشراقة التي تمتحن فيها الشمسُ قدرتَها على منح الأرض مزيداً من الدفء والنور والإنسانية، والبياض السماويّ الذي يحتضن سحر النصّ في دهشة دائمة.

عمر الطالب

عمر الطالب . أستاذاً أكاديمياً لامعاً في كلية الآداب في جامعة الموصل وناقداً بارزاً ومبدعاً قصصياً وروائياً .، كان اسماً مميّزاً ولافتاً وقويّ الحضور والتداول، وصلني وأنا ما أزال في مرحلة الدراسة الإعدادية إذ كان ثلّة من أبناء منطقتي ((زمّار)) إحدى نواحي محافظة نينوى الغربية يحدّثونني عنه بعد أن أصبحوا طلبة لديه في الجامعة، ويروون عنه الكثير من الحكايات والأقاويل التي إذا ما احتشدت بمجموعها فإنّها تدلّ على أنه الأستاذ الأكثر تميزاً في هذا المجال، على الرغم من أنّ قدراً من الأسطرة الشخصية كان حاضراً في رواياتهم عنه وعن أقواله وأفعاله بحكم إعجابهم بشخصيته وقوّة حضوره .

وكم كنت متلهفاً لأكون طالباً عنده وأنا أهجس في أعماقي حسّاً لافتاً بالانتماء إلى منطقة الإبداع، وكم كنت في السياق نفسه بحاجة إلى من يقول لي بأنني أمتلك شيئاً ما يؤهلني مستقبلاً لأكون جزءاً ولو بسيطاً في عالم مغرٍ جداً هو عالم الكتابة والإبداع، وكم كنت أرجو وربما أعتقد أو أحلم أنّ عمر الطالب بالذات هو من سيلمح فيّ هذا الشعور، وسيطلق عصافير الثقة بلا حدود في عالمي المتمنّى .

لم ألتقِ به وأعرفه إلّا في السنة الثالثة من عمر الدراسة الجامعية الأولية بعد انتظامي طالباً في كلية التربية في جامعة الموصل، إذ درّسنا في هذه السنة مادة ((النقد العربيّ القديم))، أعقبها في السنة التالية وهي الأخيرة بمادة ((النقد العربيّ الحديث))، وعبر هاتين السنتين تشكّلت علاقتي معه على نحو ما توقعت تقريباً، فقد اهتمّ بي كثيراً وقرّبني منه وميّزني عن زملائي وتوقّع لي مستقبلاً مختلفاً.

شغفت بطريقته في التدريس فقد كان مدرساً تحضر في درسه الفطنة والذكاء وسرعة البدهية والمعرفة وجمالية عرض الفكرة والإيقاع اللافت للكلام، فضلاً على ديمقراطيته في تلقي الأسئلة والحوارات بَلْهَ التحريض عليها ودفع الطلبة إلى ممارستها، وكان على هذا الصعيد بحق مدرساً مميزاً لا يمكنني تجاوز درسه مع رغبتي الدائمة بعدم حضور الكثير من المحاضرات، تلك التي ربما لم أكن ألمح فيها جديداً.

في السنة الثالثة اشتركت في المسابقة السنوية التي تجريها الجامعة للبحوث العلمية الخاصة بالطلبة، وقدّمت بحثاً بعنوان ((فلسفة الليل في شعر البياتيّ))، وفاز البحث بالجائزة الأولى، وحين ألقيت ملخصاً له في جلسة المسابقة نهض الدكتور عمر مناقشاً بحثي ليبدأ بالقول: لا أدري من أين أبدأ وأين أنتهي، فالبياتيّ ومحمد صابر كلاهما صديقي، إذ وضعني مع البياتيّ في مقام لم أكن لأحلم به وأنا لمّا أتخرّج بعدُ، على النحو الذي عزّز ثقتي بنفسي كثيراً وجعلني أقارب شخصيتي بطريقة أخرى أكثر جدية ورحابة وإدراكاً .

بعد تخرجي في الجامعة ظللت أتردّد عليه في مكتبه في الكلية أو في منزله، حيث كان يستقبلني بصفة صديق، نتحاور، ونتفرج على الأفلام العالمية التي كان تحويها مكتبته السينمائية الضخمة، وأستعير منه الكتب، وكنت أحسب ذلك نوعاً من الرعاية الخاصة التي أتمتّع بها في ظلّه العلميّ والتربويّ.

كان يقبل مساهماتي الأدبية النقدية والشعرية في مجلة ((الجامعة)) التي كان مديراً لتحريرها، وجريدة ((الحدباء)) حيث كان عضوَ تحريرٍ فيها، وكانت هاتان النافذتان أهم فرصتين لي لتجلّي إمكاناتي الأدبية صحبة أهم أدباء المدينة، وتمكّنت من أن أعزّز حضور اسمي فيهما على نحو جيد ولافت، وأنطلق منهما بعد ذلك إلى مجلات بغداد وصحفها بقوّة وثقة.

في مرحلة الماجستير كنت قد اتفقت معه من حيث المبدأ على أن يكون مشرفي، وكنت قد قررت حينها دراسة روايات حنا مينه، وكنت شغوفاً برواياته ومعجباً بتوظيف سيرته الذاتية فيها، غير أنّ ترتيبات إدارية تتعلّق بتقسيم الطلبة على الأساتذة المتخصصين في قسم اللغة العربية حال دون ذلك.

وكان أن تغيّر المشرف على هذا الأساس وتغيّر الموضوع أيضاً، فدرست موضوع ((المدينة في شعر أحمد عبد المعطي حجازي)) بإشراف الأستاذ الدكتور سالم الحمداني، وربما سافر الدكتور عمر بعد ذلك بقليل أستاذاً معاراً إلى إحدى الجامعات المغربية لمدّة أربع سنوات.

حين عاد من إعارته في المغرب كنت أنا طالباً في مرحلة الدكتوراه في كلية الآداب في جامعة الموصل، وقد درّسنا في السنة التحضيرية مادة حديثة في نظرية الأدب والمناهج النقدية الحديثة، ولم تسنح لي فرصة أن يشرف على بحثي في الدكتوراه للأسباب نفسها حيث كان مشرفاً على رسائل كثيرة.

كان الدكتور عمر الطالب معنيّاً بالفنّ القصصيّ والروائيّ والمسرحيّ على نحو خاصّ وأصيل . تدريساً ونقداً وإبداعاً .، خرّج عشرات الأجيال في الدراسة الجامعية الأولية والعليا، وأشرف على عشرات الرسائل والأطاريح الأكاديمية التي اشتغلت على القصة والرواية والمسرح تحديداً، فضلاً على أنه أبدع عدداً من النصوص القصصية والروائية التي نشرها في فترات متباعدة من حياته.

محمّد مردان

حديث الشعر هو الحديث الأكثر حيوية ونشاطاً وغبطة وحلاوة ولذّة وجنوناً وإثارة وانفتاحاً وتشظيّاً وسحراً وغموضاً، في أيّ زمان ومكان وحدث ومصير وأفق وجهة، وحين يتخصّص الحديث ضمن تجربة نوعية خاصة لها تاريخها ضمن النشاط السيرذاتيّ فإنّ الأمور تأخذ حساسيتها على نحو أكبر وأكثر ثراءً وخصباً وبهاءً.

حدث صيف عام ١٩٨٢ حيث التحقتُ بالخدمة العسكرية في مدرسة ضباط صفّ المشاة في الموصل، أن يأتي إلى مهجع الجنود المتدربين الشاعر عبد الجبار الجبوري وقد كان نائب عريف مهذّباً في المدرسة ويسأل عني، وقد نشرت حتى ذلك الوقت الكثير من الموضوعات الأدبية والقصائد الشعرية في (جريدة الحدباء) الموصلّية و(مجلة الجامعة) التي كانت تصدرها جامعة الموصل، وإذ تعرّفت إليه هناك فقد عرّفني بالمناخ الأدبيّ والثقافيّ في المدينة وحرّضني على التواصل وحضور الأمسيات الأدبية الأسبوعية، التي كانت تقام في مقر دور الثقافة الجماهيرية كما كانت تسمّى على ما أتذكّر في بناية المتحف، وهو مكان مركزيّ جميل وسط مدينة الموصل يقع في (شارع المتحف) أو (شارع الجمهورية) الموازي لـ (شارع حلب) الشهير، ويقود على بعد أمتار قليلة إلى أحد جسور الموصل الشهيرة الموسوم بـ ((جسر الحريّة)) العابر نحو الجانب الأيمن من المدينة. وفعلاً دوامت على حضور هذه الأمسيات وتعرّفت إلى الكثير من أدباء المدينة بأجيالهم المختلفة، ولكن في حدود ضيّقة . أول الأمر . تناسب خجلي وريفيتي وعدم رغبتي . أو ربما خوفي . بالظهور اللافت، ومن بين من تعرفت إليهم بوساطة عبد الجبار الجبوري الشاعر محمد مردان، وكان وقتها مديراً لأحد أقسام مديرية شرطة نينوى، ويحمل إجازة في القانون، يكتب الشعر ويترجم عن التركمانية، دمث ومتواضع ومحب وحسّاس وكريم لا يُجارى في أكثر هذه الصفات. مكتبه في مديرية الشرطة كان صالوناً أدبياً للكثير من أدباء المدينة، وكان لي ولبعض من زملائي ملاذاً نتواجد فيه بشكل شبه يوميّ منذ ذلك الوقت، وحتى إحالة صديقنا مردان على التقاعد من الشرطة، حيث افتتح مكتباً للمحاماة وما لبث أن تحوّل المكتب إلى صالون بديل عن الصالون الذي فقدناه في مديرية الشرطة، لكن تواجدنا كان في المساء عادة حيث يكون هو قد أنهى عمله مع مراجعيه في المكتب .

كانت لقاءاتنا مملوءة بالحوارات النافعة والمفيدة، نقرأ لبعضنا ونتبادل الملاحظات على ما نسمع ونقرأ، ونذهب بعد ذلك إلى مقر جريدة الحدباء في منطقة (الدندان)، حيث كان مقرها مأوى آخر نتردد عليه باستمرار ونلتقي فيه، ننشر قصائدنا ومقالاتنا على صفحات الجريدة وكنا نتقاضى على ما نكتب مكافآت جيدة، تساعدنا في ترتيب أوضاعنا في حدود المصاريف اليومية، ولعلّ هذه الجريدة إحدى العلامات المركزية المهمة في تاريخ الحركة الثقافية والأدبية الموصلية في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وأنا والكثير من أبناء جيلي ندين لها بالكثير بوصفها عتبة مهمة من عتبات انتشارنا وحيويتنا الثقافية والأدبية، تحكي على نحو غزير جانباً من صعلكتنا الهادئة في المدينة .

بعد ذلك بقليل جمعني والشاعر محمد مردان مجال آخر له أهميته وحضوره هو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين . فرع نينوى .، إذ عملنا معاً في الهيئة الإدارية للفرع دورتين متتاليتين مع الأدباء نجمان ياسين ومزاحم علاوي وثامر معيوف وآخرين، وكانت لقاءاتنا أسبوعية حيث نقيم ندوة أسبوعية استضفنا فيها الكثير من مثقفي وأدباء المدينة وأساتذة جامعة الموصل، فضلاً على استضافة أدباء عراقيين من محافظات أخرى، وكانت استضافتنا للشاعر الكبير عبد الوهاب البياتيّ لمدة أسبوع تقريباً تاج هذه اللقاءات، إذ أقام أمسيات شعرية وندوات حوارية طيلة تلك الأيام، وأصدر فرع الاتحاد طبعة ثانية من ديوانه الذي كانت طبعته الأولى قد صدرت حديثاً عن دار الشروق في القاهرة ((بستان عائشة)) .

وبعد عودته إلى بغداد كانت جامعة الموصل قد أوفدتني . وأنا أحضّر لأطروحتي في الدكتوراه . لمدة شهر إلى القاهرة، سافرت مطلع شهر حزيران ١٩٩٠، وكان البياتيّ قد طلب مني أن ألتقيه قبل سفري، فهاتفته فور وصولي بغداد واتفقنا على اللقاء في كافيتريا فندق الشيراتون الساعة السابعة من عصر الثالث من حزيران، وحين دلفت إلى الكافيتريا وجدته صحبة الدكتور نزار الحديثي وقد جلب له ديوان أبي نؤاس، وما أن غادر الدكتور مجلسنا حتى سألني البياتي عن قابليتي على التسكع والسهر، فأجبته بأنني سأسعى إلى مجاراته ما وسعني ذلك وهو المشهور بأنه لا ينام لشغفه بالسهر، فجبنا ليل بغداد ننتقل من حانة إلى أخرى حتى بلغت الساعة الرابعة فجراً، إذ أعلن البياتيّ أنّ السهرة انتهت فغادرته إلى منزل صديقي عبد الله إبراهيم في منطقة الشرطة الخامسة، فوجدته بانتظاري وحدّثته عن سهرتي مع البياتيّ بأكثر تفاصيلها.

كانت لقاءاتي بالصديق الشاعر محمد مردان مستمرّة ومثمرة طيلة السنوات الست الأخيرة من العقد التسعينيّ خاصة، وشهدت هذه السنوات رحلات كثيرة معه وبعض الأصدقاء إلى بغداد بسيارته نوع ((لادا ٧٩))، قبل أن يستبدل بها سيارة من نوع ((برازيلي)) فيما بعد، حيث ننزل في أحد فنادق العاصمة الشعبية ونواصل مسيرتنا صباحاً نحو دار الشؤون الثقافية العامة في منطقة (سبع ابكار)، وصحف الثورة والجمهورية والقادسية والعراق، نجمع المكافآت التي نتقاضاها عما ننشره من مواد فيها على مدى أشهر، ونمضي سهرتنا عادة وجيوبنا عامرة في نادي اتحاد الأدباء في ساحة الأندلس فنلتقي الكثير من أدباء بغداد والمحافظات القريبة هناك.

الشاعر محمد مردان أول من شجعني على النشر في صحف بغداد المركزية بعد إذ رأى أنّ مستوى كتابتي ستحظى بالاهتمام هناك، وكان أن أرسلت أول مقال نقدي إلى الصفحة الثقافية في صحيفة الثورة التي كان يشرف عليها الشاعر المبدع خالد علي مصطفى، وربما كانت صفحته من أهمّ الصفحات الثقافية لما يتميّز به من موضوعية وثقافة ورؤية علمية ناقدة، حيث كانت محطّ أنظار الكثير من الكتاب والمثقفين العراقيين والعرب أيضاً، وفوجئت بعد أسبوع من إرسال المقالة أنها نشرت في صدر الصفحة الثقافية باهتمام واضح، على الرغم من وجود صفحة ثقافية أسبوعية خاصة بأدب الشباب تصدر كلّ ثلاثاء ويشرف عليها كذلك الشاعر خالد، وكانت تحظى بأهمية كبيرة أيضاً. إنّ نشر مقالتي في صدر الصفحة الثقافية المركزية وضعني أمام مسؤولية كبيرة وبعث في داخلي فرحاً كبيراً وثقة عالية بنفسي كنت بأمسّ الحاجة إليها، واستمررت بإرسال المقالات حتى بلغتْ أكثر من عشرين مقالة منشورة وضعت اسمي على لائحة النقاد العراقيين الشباب الأكثر حضوراً في الساحة الأدبية، قبل أن أذهب إلى بغداد بمعيّة مردان طبعاً لأتعرّف إلى الفضاء الأدبيّ والثقافيّ، ولتكلّفني مجلة الطليعة الأدبية والأقلام بكتابة مقالات ودراسات كانت فاتحة أكبر لدخولي هذا المجال بقوّة .

لعلّ من الطرائف الثقافية التي يمكن إدراجها في هذا السياق ذي النكهة السيرذاتية المرتبطة بعلاقتي الثقافية بالشاعر محمد مردان وثلّة من مثقفي مدينة الموصل، هي تلك الطريفة التي جمعتني صحبة محمد مردان مع الشاعر رعد فاضل والقاص ثامر معيوف، ونحن نسهر في أحد مطاعم المدينة حيث كنّا بصدد تشكيل ما سمّيناه حينها بـ ((المربع الذهبيّ)) الذي يضمّنا أربعتنا، في وقت كنّا فيه مولعين بالتجمعات التي تتألف من بعض الأدباء الذين يجدون في

أنفسهم مزايا ثقافية ورؤيوية مشتركة، يمكنها أن تجمعهم ضمن خيمة تسمية ثقافية وفكرية وأدبية ذات شأن . حتى وإن كان هذا الشأن على صعيد التسمية الإعلامية حسب ..

المهم أنّ أمور تشكيل المربع الذهبيّ كانت على وشك الإنجاز قبل أن يدخل المطعم صديقنا القاص سمير إسماعيل، وهنا انبرى القاص ثامر معيوف المعروف بقفشاته ومقالبه ليحوّل المربع الذهبيّ فجأة إلى ((مخمّس ماسيّ)) يضمّ إلى مربعنا السابق سمير إسماعيل، وحين شاركنا الجلسة أصبح واحداً من خمسة أدباء من أدباء المدينة يشكّلون تجمعاً أدبياً جديداً هو المخمّس الماسيّ، وحيث لم يجد سمير من مكافأة يقدّمها لنا على انتخابنا إياه شريكاً لنا في هذا التجمّع سوى أن يتكفّل بدفع حسابنا جميعاً، وهو الأمر الذي خطّط له . طبعاً . ثامر معيوف بخبثٍ طريف، فقد بادر إلى ذلك بقوّة وحماس لقي منا طبعا الرضا الكامل، ولم يلبث هذا المخمّس الماسيّ أن عاد إلى مربعه الذهبيّ السابق بمجرد أن دفع سمير الحساب حيث انتهت مهمته وغادر المطعم.

يمكنني أن أصف صديقي الشاعر محمد مردان بالشاعر الخجول في حياته وشعره، فهو كائن إنسانيّ عالي الدماثة والخلق والهدوء والرحابة والعمق، ينطوي على عبث داخليّ وانتظام خارجيّ ولعلّ ذلك قادم من مهنة الشرطة وتخصص القانون، فعبثه الداخليّ أشبه بالموج الهادر الذي يتجلّى في عينيه، لكنّ انتظامه الخارجيّ على الدوام يحدّ من ثورة الداخل . وربما يكبتها . ولا يوفّر لها سوى حرية الحركة المتموجة في الأعماق. ويمكنني في السياق نفسه أيضاً أن أصفه بالشاعر العاشق، فقضية الحبّ عنده هي قضية انتماء وشعور وحياة وشعر، لا يتعامل مع مفهوم الحبّ وسلوكه وتجلّياته إلا بمنظوره الصوفيّ الذي يتجانس على نحو ما مع المنظور الإيروسيّ، وهو ما يتجسّد في شعره على نحو واضح وعميق وغزير، فشعرة مضمّخ بتجربة الحبّ ومتشبّع بدواله وصوره وإيقاعه وحكاياته وأساطيره ورموزه وإشاراته وعلاماته، بحيث تبرز بوصفها قضية مركزية لا يمكن فهم تجربته من دون مقاربتها وفحص كينونتها وحضورها في شعره. تكاد تكون شخصية محمد مردان الشعرية والإنسانية واحدة، داخل كيان واحد ووجود واحد، إذ ثمة تماهٍ منقطع النظير بينهما، فهو شاعر في إنسانيته وإنسان في شاعريته، وتنفتح هذه الشخصية المزدوجة على قدرٍ كبيرٍ من هدوء وعمق وأناقة الشاعر، فضلاً على صوفيّة الشكل والشخصية من حيث جوانبها كافة.

يضطلع الآن بعمل موسوعيّ مهم، بل في غاية الأهمية، يتمثّل هذا العمل المهم في إنجاز موسوعة التراث الشعبيّ التركمانيّ، وهو من المشروعات الكبرى التي يمكن أن تحقق له حضوراً إبداعياً يوازي إبداعه الشعريّ، لما ينطوي عليه من فرادة وقيمة تاريخية وثقافية وفنية وأدبية، يحفظ فيه ثقافة شعب زاوج في تكوينه الموروث . شعبيّ بين قوميته التركمانية وانتمائه العراقيّ إلى أرض العراق، وقد شكّلت فسيفساء خلاّقة خصّبت التاريخ العراقيّ والثقافة العراقية بهذا التنوّع المدهش والتعدد الجماليّ الخلاّب .

حسن حميد

حسن حميد القاص والروائيّ والدكتور والباحث في فلسفة علم الاجتماع والصحفيّ والقائد النقابي في اتحاد الكتاب العرب هو بكلّ بساطة ورحابة ودفء وحيوية وخصوصية كائن مختلف، مختلف بعمق وسعة ووعي وجمال وإدراك وحلم وطرافة وشكل وأداء وأناقة ولباقة وخطاب .

كلما رأيته . جالساً، محيياً، خارجاً، داخلاً، منكبّاً على ورقة ما (سمراء غالباً) يدوّن شيئاً، أو ملتفتاً إلى أحد الجالسين الظرفاء يتندّر بلطف ورقّة ومحبة ودرامية معه حول قضية ليست قضية ولا علاقة لأيّ شيء فيها بأيّ شيء لا في السماء ولا في الأرض، وهذا الـ ((أحد)) المسكين، الدرويش، الضحية، منهمك حتى أذنيه بترتيب إجابات منطقية ودفاعات بنيوية عن هجوم حسن الفنطازيّ وأسئلته المفككة والمشتتة والغريبة والمفاجئة، التي لا تحيل لفرط سخريتها على شيء . خلته خارجاً للتوّ من جوف رواية عتيقة خلاّبة مشرّبة بالحكايات، أو فم قصة قصيرة غضّة ورطبة وبضّة يعرفها لفرط دهشتها وديمومتها كلّ الناس بمختلف جنسياتهم وأعراقهم وهوياتهم ولغاتهم وأمكنتهم وأزمنتهم، واستحضرت على الفور ومن دون أن تشعر أجواء ألف ليلة وليلة التي سبق لها أن أخذت حسن وسحرته، وشحنت ميكانيزماته الحكائية، وغمرته بمائها السرديّ الإيروتيكيّ اللذيذ إلى الأبد.

لم أقتنع في يوم ما . لهذه البيانات والقرائن والأسانيد والأسباب وغيرها . أنه كائن طبيعيّ يمكن أن يشبه كلّ الكائنات الطبيعية المعروفة والمألوفة والمتداولة، هو في حركة مستمرة، وعمل مستمر، وتفكير مستمر، وتأمل مستمر، وتطلّع مستمر، وإنجاز مستمر، وانتباه مستمر، ورغبة مستمرة، وابتسامة مستمرة تشمل الجميع بلا استثناء، بوسعه . كما أظنّ دائماً . احتضان العالم كلّه في ابتسامة واحدة عرضها المحبة والصدق والأمل، لا يخذل أحداً يقصده مهما كان الطلب معجزاً أحياناً، على النحو الذي يقتنع صاحب الحاجة حين لا يتحقق ما يصبو إليه كما يشتهي بأنّه اكتفى بكسبِ لطفِ حسن وظرفه وصدقه ومحبته ومداعبته، وذلك حسبه.

يمكنني القول بأنّ حسن حميد هو المختصر المفيد والمغني اللبيب لاتحاد الكتاب العرب في سوريا، مع احترامي الشديد وحبي العميق لبعض أصدقائي الرائعين هناك، غير أنه . والحقّ يجب

أن يقال . يقوم بدور مشرّف لصالح هذا الاتحاد العتيد قبل أن يعمل ذلك لحسابه الشخصيّ الأدبيّ، غرفته . المحتشدة بالرؤى والصور والمزدانة بالمحبة والكتب والأوراق وأكواب الشاي والقهوة والزهورات على نحو عجيب ومثير وجميل وكريم للغاية . في مبنى الاتحاد مكتظّة على الدوام بالأحبة والأصدقاء والأدباء وأشباههم من كلّ حدب وصوب. فقد تجد الجزائريّ لصق السودانيّ، والعراقيّ بجانب الفلسطينيّ، والتونسيّ يحاور الأردنيّ، والسوريّ يجامل اللبنانيّ، والإيرانيّ يسأله عن كتاب أو أستاذ أو قضية أدبية تشغله، وقد تجد ثلة من الشباب والشابات الأجانب الذين يدرسون العربية وثمة من وجههم إلى المرجع حسن حميد ليفيدهم في حاجة ما، أو يحلّ لهم إشكالاً معيناً، ماذا يمكن أن يسمّى كلّ هذا يا ترى؟

تعرفت إلى حسن حميد أول مرة في بغداد في ندوة عربية عن القصة والرواية نهاية التسعينيات . إذا لم تخني الذاكرة المثقوبة . ، وبادرت أنا بتحيته والحديث معه عن منجزه القصصيّ والروائيّ، والحديث أيضاً طال الشاعر الراحل محمد القيسيّ صديقنا المشترك، وكان حسن في غاية الودّ واللطف فأحببته كثيراً، وازداد هذا الحبّ كلما التقيته فيما بعد، وأصبحتْ زيارته اليومية في مكتبه في اتحاد الكتاب العرب أشبه بواجب يوميّ لي طالما أنا موجود في دمشق، وهو في مكتبه منذ الصباح حتى ما بعد منتصف النهار يعمل بحركة دائبة مستجيباً لآلاف الطلبات من الأصدقاء والمحبين، سواء من الذين يزورونه في المكتب أو يطلبون منه تلبية طلباتهم عبر الهاتف الذي يكاد لا ينقطع أو يهدأ أبداً، وفي ظلّ كلّ هذا الضباب الكثيف الجميل الذي يحيطه من كلّ جانب كتب بامتياز رسالته للماجستير وأطروحته للدكتوراه.

حسن حميد قاصّ من طراز رفيع، لكنه ككلّ القصاصين أو معظمهم . وحتى غير القصاصين من شعراء ونقاد وغيرهم . طرق باب الرواية الأكثر إغراءً وتطلعاً وتداولاً وشهرة، وأنجز مجموعة من الروايات التي أشاد بها الكثير من نقاد السرد العرب، وفاز بأكثر من جائزة على هذا المنجز النوعيّ، واعترف هنا أنّ روايته الشهيرة ((جسر بنات يعقوب)) التي اختيرت واحدة من أفضل مئة رواية عربية في القرن الماضي قد بهرتني، فهي لا تدلّ إلّا على طاقة روائية سردية هائلة وخيال روائيّ خلّاب وبالغ الكثافة والخصب و التنوّع .

أما روايته الأخرى ((الوتّاس عطية)) فقد أخضعتها للدراسة الأكاديمية في برنامج الماجستير في كلية التربية في جامعة تكريت، واقترحت على أحد طلبة هذه الدورة الممتازين هو

الشاعر أحمد عزاوي دراسة المنجز الروائيّ لحسن حميد، فأنجز رسالته بتقدير ((ممتاز)) وطبعت رسالته فيما بعد كتاباً مهماً قارب بناء الشخصية في مدوّنة حسن حميد الروائية.

في السفرات الأخيرة التي كنت أزور فيها حسن كالعادة طالما كان يحدثني عن عمل روائيّ أقلقه طويلاً عن قرّة العين (القدس)، وكان يستشيرني في مسألة العنوان الذي يجب أن يكون لهذا العمل مشترطاً أن يكون اسم ((القدس)) مُشرقاً فيه، وأذكر أنني اقترحت عليه من ضمن ما اقترحت اسم ((شفرة القدس))، لكنه اعترض على إمكانية ربطه بعنوان رواية ((شفرة دافنشي)) للكاتب الأميركيّ دان براون، وظلّت قضية العنوان تقلقه حتى اهتدى . من دوني . إلى عنوان ((مدينة الله))، وهو العنوان القَدَري الذي لا بديل له لهذه الرواية.

بعد أن اهتدى حسن إلى جنّة العنوان وصدرت الرواية وأهداني نسخة منها باشرت بقراءتها فوراً، ووجدت أن كتابة دراسة عنها لا يروي رغبتي في أن أقدم لـ ((حسن)) الصديق الحسن، ولـ ((مدينة الله)) في فسيفسائها السردية الباهرة شيئاً مهماً يرقى إلى مكانتها، ويتسلّق مدارجها، ويجيب على بعض أسئلتها المهمة، لذا عمدت إلى مفاتحة من أثق بقدرته على مقاربة هذه الرواية من أصدقائي وزملائي للكتابة عنها على النحو الذي تماثل وتمثّل جلياً وجميلاً وصادقاً ووفياً كتاب عنوانه ((مغامرة التجنيس الراوئيّ)) صدر عن عالم الكتب الحديث في الأردن عام ٢٠١٢، إذ استجاب الأصدقاء والأحبة استجابة باهرة بعد أن اتفقوا جميعاً على جمال الرواية، وتفوّق بنائها التركيبيّ، وسحر لغتها السردية، وبراعة صنعتها الروائية، فأقبل الجميع على استنساخ الرواية للاحتفاظ بنسخة منها بعد قراءتها والعمل عليها، إذ إنني لم أجلب معي من دمشق سوى النسخة التي أهداني إياها حسن.

صباح القسّ

كانت أيام المربد في تسعينيات القرن الماضي أيام بهجة استثنائية لنا، أنا وفرج وياسين وسعد الصالحي، هذه البهجة التي لا تتأتى حتماً من معظم ما كان يلقى من شعر رديء على منصّات الإلقاء حين يتهافت عليها صغار الشعراء، بل ما تتيحه المناسبة من لقاءات سنوية موسمية بين الأصدقاء والأحبّة، شكّلنا نحن الثلاثة فضاءً خاصّاً بنا لا علاقة له بشيء غيرنا، نستعدّ قبل أيام ونحزم أمرنا ونتهيأ كي نحتفل بأنفسنا كما يجب، نستقلّ في الغالب سيارة سعد الصالحي ونتوجّه نحو فندق (الميليا منصور) في بغداد عصر اليوم الذي يسبق افتتاح المربد، لنصل قبيل المساء فنخترق الجموع في صالة استقبال الفندق الجميلة وهي تحتشد بما نعرف وما لا نعرف من أدباء العراق والوطن العربيّ، فنأخذ غرفة مشتركة أنا وفرج ويذهب سعد إلى غرفة أخرى صحبة أيّ شخص آخر، إذ هو صديق للجميع وليس لديه مشكلة في ذلك البتةَ، ما أن نستقرّ في غرفتنا حتى نبدأ طقسنا الأوّل في التجوّل الحرّ في أسواق البتاوين كي نشتري حاجياتنا الخاصة، ومن ثمّ يبدأ لقاؤنا الثلاثيّ الذي لا ينغصّه أحياناً سوى أصدقاء سعد الطارئين وهو يرتجلهم ارتجالاً، لكن سهرة الليلة الأولى تمضي على خير دائماً حتى قبل أن نلتقي أحداً من أصدقائنا الذين ننتظر اللقاء بهم بفارغ الصبر.

في خضمّ هذه الليلة الأولى نتّصل أولاً بصديقنا المشترك الأهمّ (صباح القسّ) وقد عرّفنا عليه فرج ياسين حيث كان زميله في كلية الآداب بجامعة بغداد، ومنذ اللحظة الأولى التي تعرفّت فيها إلى هذا الرجل (صباح القسّ) شعرتُ بأنّه مختلف في كلّ شيء، في دماثته ومحبته وخلقه وشخصيته البسيطة العفوية الممتلئة، منذ اللحظة الأولى يُشعرك أنك قريب وكأنه يعرفك وتعرفه قبل دهر، فعلى الرغم من أنّ العلاقة بينه وبين فرج ياسين لا يمكن وصف جمالها وصدقها وتاريخيتها وأصالتها، غير أنّ صباح القسّ سرعان ما يجعلك تعيش جوّ هذه العلاقة بوصفك جزءاً لا يتجزّأ منها، أعترف هنا أنّ معرفتي بصباح القسّ أحد أجمل هدايا فرج ياسين لي، وحين عرّفت صباح القس فيما بعد على ثلّة من أصدقائي ومعارفي الآخرين خرجوا بالانطباع نفسه، وقد يختلف الجميع على أي شيء ممكن في هذه الحياة القابلة والمهيأة أصلاً للاختلاف وحتى الصراع لكن ليس ثمة خلاف أبداً على صباح القسّ.

يحيطنا برعاية أخوية خاصة طيلة وجودنا في بغداد، ويكون لنا في بيته العامر أكثر من سهرة هائلة يستحيل نسيانها أو التفريط بها، ما أجملك يا أبا زيد وأنت تصنع المحبة والجمال والفرح وكأنها تَصنع لأوّل مرة، من أين تأتي بكلّ هذه الروح الملائكية القادرة على احتواء العالم؟ من أين تأتي بهذا الانسجام الخلّاق بين الكلام والسلوك والحركة والفعل والنيّة والرؤية؟ من أيّة تربية فائقة الأصالة تنهل طاقتك الفذّة على إضفاء البهجة علينا ونحن نتحرّر من حزننا كما يتحرّر عصفور من قفص، نغني ونفرح ونحكي ونضحك، والمحروس زيد يعزف لنا على عوده بأنامل ساحرة، وأخوه الأصغر يداعب البيانو بغبطة ما بعدها غبطة، وكلّ شيء أمامنا ويحيط بنا ويكلّلنا ويحرسنا له علاقة بالسماء أكثر من الأرض، ننتمي إلى اللحظة التي نعيشها معاً انتماءً مطلقاً لا يمكن لأحدنا أن يغادرها لفرط هيمنتها على إحساسنا، لحظة تغمرنا باللهو المشحون بألق لا نظير له، لحظة تمتدّ إلى ما شاء الله من وقت كم كنّا نتمنى أن لا تنتهي.

لا يكتفي صباح القسّ بهذا مطلقا، بل يأخذنا في جولات بغدادية في الأسواق والمطاعم والمحلات ننعم فيها بكرمه ولطفه وحديثه الساحر، منطلق على الدوام، لا تفارق الضحكة أو الابتسامة النابعة من قلب صاف شفتيه وروحه، عراقيّ بانتماء حيّ إلى تلك الجذور الأولى التي زرعت في أرض العراق أشجار الأمل والوجود والمحبة والسلام، وجهه وملامحه العميقة وعلاماته الثرية تحيلك على عظمة سومر وآشور وبابل، وهو ما يجعله متشبثّاً بأرضه على الرغم ممّا حفل به تاريخنا المعاصر من قهر وظلم ومصادرة للمعاني الأصيلة التي ما برحت تدافع عن وجودها من أجل التاريخ والحياة، ولعلّ من آيات هذا الإصرار الحضاريّ على المقاومة والاحتفال الدائم بالوجود أنّ صباح القس يُكمل دراسته العليا ويصبح دكتوراً في الأدب العربيّ القديم، فكم من معنى يتفتّح هنا في شخصية هذا الرجل الكبير؟

شقيقي صباح القسّ ها أنت تصبح دكتوراً في الأدب لكنك كنت على الدوام أكبر من هذا اللقب، مع أنني أفهم معنى إصرارك الجميل هذا وأقدّره وأرفعه إلى أعلى مقام، أنت عندي شاعر كبير حتى لو لم تكتب قصيدة واحدة، وسارد كبير حتى لو لم تكتب قصة أو رواية واحدة، وفيلسوف كبير حتى لو لم تتفلسف في أية قضية فلسفية، لأنّ المعنى لا يمكن في العناوين فقط بل في المتون، ومع أنني الآن في غربة قسرية وقد تركت مكتبتي وبيتي وجامعتي ومدينتي وعراقي وأنا أتحرّك هنا في مساحة ضيّقة شمال شرق بلاد الأناضول، إلّا أنني احتفلت حين عرفت من فرج ياسين أنك حصلت على الدكتوراه، ويؤسفني أن أخبرك أنني نسيت (الجراب)

هناك لذا فأنا شبه عاطل عن العمل هنا، وأنت تعرف قيمة هذا (الجراب) عندي إذ إنني ضائع من دونه، وأناشد كرمك أن تصلّي من أجل أن أعود إلى (جرابي) لأتحرّر من ضيقي وعزلتي وغربتي، وأعود كما عهدتني فارساً لا يشقّ له غبار في ابتكار طرق جديدة في الكتابة والحياة والإبداع واستخدام (الجراب).

حسن سليفاني

كان الجوّ الأدبيّ العراقيّ في ثمانينيات القرن الماضي على الرغم من ظروف الحرب القاسية والمؤلمة حافلاً بالنشاطات واللقاءات على مستويات عديدة، وفي هذا الجوّ على ما أظنّ حصلت لقاءات طفيفة بيني وبين الشاعر حسن سليفاني، غير أنّ هذه اللقاءات ظلّت غامضة في غيم ذاكرتي لا يمكنني استعادة الكثير منها، حتى حصل أول لقاء حقيقيّ صيف عام ٢٠٠٣ بعد أن وصلتني عن طريق الصديق الشاعر فيصل القصيري باقة من القصص الكردية كان حسن قد ترجمها إلى العربية في كتابه ((قصص من بلاد النرجس))، وحيث أعجبتني كتبت عنها دراسة طويلة نسبياً وكتب عن إحدى قصصها صديقي الناقد المبدع الدكتور خليل شكري هيّاس، وكان هذا أول لقاء نصّي بيننا وبين الأدب الكرديّ الذي لا نعرف عنه الكثير.

بعد ذلك كان الصديق سليفاني حريصاً على دعوتنا إلى اتحاد الأدباء الكرد في دهوك لإقامة أمسية عن ((قصص من بلاد النرجس))، وفعلاً تحققت هذه الأمسية صيف عام ٢٠٠٣ ألقيت فيها كلمتي الموسومة بـ ((بيان أبيض بقامة النهار))، نشرتها في كتابي الرسائليّ ((رسائل حب بالأزرق الفاتح))، وأعدت نشرها في كتابي الرسائليّ ((سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح)) الذي ضمّ رسائل كتابي الأول وباقة أخرى من رسائلي، قبل أن أقدّم في الأمسية ملخّصاً لدراستي، أعقبها الصديق خليل بإلقاء ملخص دراسته، وأمضينا يوماً جميلاً رائعاً في ربوع دهوك الجميلة، وحظينا باهتمام الأدباء الكرد على نحو أسعدنا وأسهم في نسج علاقة حميمية وضرورية بيننا، استمرت حتى اليوم وتوّجت بمجموعة من اللقاءات الأدبية التي ينشط فيها اتحاد أدباء دهوك على نحو مدهش، قد يتفوق فيها على وزارة ثقافة كاملة.

لا يكتفي حسن سليفاني بكونه شاعراً وقاصاً ومترجماً حتى تكتمل شخصيته كما أراها، بل يعكس قدرة قيادية نقابية فذّة تمكّن فيها من أن يجعل من اتحاد أدباء دهوك منبراً ثقافياً واجتماعياً خلاّقاً، في مقرّ ساحر وباذخ على مساحة كبيرة في قلب المدينة، هو ملك للاتحاد لا يملك مثله أيّ اتحاد آخر، ليس في العراق فحسب بل في الكثير من البلدان العربية التي زرتها وزرت مقرات اتحاداتها، وكنت أقول لحسن دائماً لو أنك لم تفعل شيئاً سوى هذا المكسب الهائل لأدباء دهوك لكفاك فخراً، إذ كلما زرته بين الحين والحين أجد تطوراً قد حصل فيه، إنه بيت ثقافيّ آمن

وفسيح وأنيق ومثاليّ يتمناه أيّ أديب ومثقف في العالم كما أظن، وإنجاز يليق بحسن وزملائه من أدباء دهوك أن يفخروا به دائماً.

أما مجلتهم الدورية ((بيف)) فإنها مجلة مهمة منتظمة الصدور حتى في أحلك الظروف، وأصدر الاتحاد أكثر من ٢٤٠ كتاباً أدبياً وثقافياً لأدباء دهوك، فضلاً على الأمسيات الأدبية المنتظمة والمهرجانات المحلية والإقليمية والدولية التي حظيت باهتمام إعلاميّ وثقافيّ واسع في الداخل والخارج، وأسهم فيها الكثير من الأدباء العرب والأجانب، زيادة على تبادل الزيارات الثقافية والأدبية قامت بها وفود من اتحاد أدباء دهوك إلى الكثير من المحافظات العراقية في مهرجانات قطرية، وإلى الدول المجاورة والدول الأوربية التي سبق أن أرسلت وفوداً مشابهة إلى دهوك.

في كلّ هذا وذاك كان حسن سليفاني هو المركز وهو المحور وهو القائد بإسناد حقيقيّ ومخلص من زملائه الأدباء الكرد في دهوك، إنه منجز كبير ليس له مثيل لا في كردستان ولا في عموم العراق، ويحقّ له ولزملائه أن يفخروا به بوصفه علامة استثنائية على جهد ثقافيّ وأدبيّ عالي المستوى يجب أن يُحتذى، استطاع فيه حسن أن يجمع على نحو رائع بين شخصية الأديب وشخصية القائد النقابيّ الثقافيّ بصورة نموذجية بالغة الثراء لا يمكن أن تتكرر كثيراً.

أما عن شخصية حسن سليفاني الإنسانية فهي شخصية متحضّرة واعية ترى في الآخر صديقاً ممكناً لا عدواً محتملاً، تعمّقت صلتي به انطلاقاً من هذه الرؤية التي تلائم رؤيتي وتطلعاتي وموقفي من الأشياء، وثمة علاقة حميمة بين ما يكتب ويتصرف على نحو عميق وصميميّ، وهو ما دفعني إلى أن أكلّف ورشتي النقدية بإنجاز كتاب نقديّ عن ((قصائد من بلاد النرجس))، نُشر ضمن مطبوعات الاتحاد أولاً، ونشرته بطبعة ثانية عن دار مجدلاوي للنشر والتوزيع في عمّان، ثم اشتغلت على تطوير بحثي عن ((قصص من بلاد النرجس)) حتى تحوّل إلى كتاب أنتظر صدوره عن دار سردم في الأيام المقبلة، والكتابان عندي وعلى الرغم من أهميتهما النقدية في تقديم رؤية عن الشعر الكرديّ والقصة الكردية للقارئ العربيّ، فهما في المقام الأول تحية محبة لحسن سليفاني الصديق المميز وللأصدقاء الأدباء الكرد في دهوك جميعاً، فضلاً عن كون مثل هذه الممارسة يجب أن تمثّل درساً ثقافياً وأخلاقياً لحيوية العلاقة الأصيلة الضرورية بين الأدباء العرب والكرد في العراق، وقد لمست من حسن ومن كلّ الأدباء الكرد في

دهوك ما يؤكّد إيمانهم بهذه العلاقة على أرفع ما يكون، وهو ما حفزّني شخصياً والكثير من زملائي على توثيق الصلات وتعميقها من أجل غدٍ ثقافيّ أفضل للعراق والعراقيين.

حسن سليفاني أديب متوقّد ومثقف تتسّع ثقافته للألوان كلّها والفضاءات كلّها والفصول كلّها، خالٍ من العُقَد، وبعيد عن التعصّب، عميق الولاء، محبّ لا يعرف الحقد، لم أسمعه في يوم ما تحدّث عن أحد بسوء، متجدّد، متعاون، يسعى إلى التواصل ولا يسعى إلى الانقطاع، في وجهه الكرديّ الأصيل تلتئم طيور الشعر والسرد والبنفسج والثلج والأمل معاً، لا أدري لماذا كلما التقيته أو تذكرته تختلط عندي صورته بصورة الجبل بكلّ شموخه وهيأته وملامحه، بثباته وصموده، ثقله وعمقه وكثافته، اخضراره ونشوته الغامضة الضاربة في ضمير الأرض والزمن والتاريخ، كلّ ما يكتبه يشبهه تماماً، وأعتقد أنّ وجود حسن سليفاني في دهوك كان علامة مميزة جداً لثقافة المدينة وأدبها وحضورها الإنسانيّ في كردستان والعراق والعالم، مع صغر هذه المدينة وهي تلتئم بين حضن الجبل كما تلتئم جوهرة، وتنفتح بين يديّ الأفق والفضاء والزمن كما تتفتّح شعلة نوروز، إلّا أنها متألقة بكلّ ما فيها، وفي مقدّمتها بناية اتحاد الأدباء الكرد إذ يجري العمل في داخلها بلا هوادة، فما أن ينتهي نشاط ناجح حتى يبدأ التفكير بنشاط جديد يتفوّق على السابق.

حسن سليفاني ودهوك وكردستان والعراق والحب والطبيعة والشمس والماء والهواء كيان متآلف ومتّحد ورحب ومتجانس، يتطلّع إلى المستقبل بعيون ملوّنة كلّها قوّة وثقة لا تستجيب لضغط الراهن المشتبك بقدر ما تذهب إلى الآتي وهو يحمل في طياته بشائر النور والفرح، حسن سليفاني ذخيرة خصبة من الكتابة والمشاريع والنصوص والحبّ، قال الكثير لكنه يختزن الكثير أيضاً، وأنا بانتظاره دائماً صديقاً ومبدعاً قادراً على جمع الشمل وإكمال حبّات العِقد.

. نوافذ .

. خطابٌ متأخرٌ: الكتابةُ ذهبٌ مزيّف

. أسبوعان في ((وان))

. نافذةٌ للوجد: حينَ يخضرُّ العطر

. على هامش عشق السيّدة

. بلاغةُ الذاكرة

. نوروزُ الفرحُ الملوّنُ

خطابٌ متأخرٌ

. الكتابةُ ذهبٌ مزيّف .

ورطة الكتابة بلا أدنى شكّ هي ورطة الورطات، فإذا كان ثمة خلاص ممكن من ورطة الحبّ، وكذلك، ورطة المال، وكلّ الورطات الأخرى، التي يذهب إليها المرء بقدميه مدفوعاً بقوى رهيبة تحجب عقله، وتغيّب عواطفه، وتجعله كسائرٍ في نومه تأخذه أحلامه إلى ما لا يعرف، فإنّ ورطة المعرفة لا خلاص منها، كلما توغلتَ فيها أكثر انغمستَ عميقاً في بحر لذائذها، وانحدرتَ مستسلماً إلى جبّها الغائم اللزج، وتلبّستك شياطينها بسحرٍ عجيبٍ، وتحولتَ بين يديها فجأة إلى رهينة.

لم أكن أقصِد أن أرسم لحياتي مصيراً مغبرّاً تائهاً متموّجاً كالذي بين يديّ الآن، مع أنني عرفت مبكراً أنني سأصبح كاتباً، كنت ألعب وألهو فقط كمن يحلم، صحوت . متأخراً كعادتي . فوجدتني أتربّع مثل شيخ حكيم يائس على عرش يحمله ثلاثون كتاباً، الكتابة مؤنّثة والكتاب مذكّر، الكتاب هو الحامل والكتابة هي المحمول، أيّة مفارقة سيميائية هذه ؟.

حين أطللتُ بقلقٍ وريبةٍ من فوق عرشي على كتبي الثلاثين أدركت برعبٍ كبيرٍ كم تبعد الأرض عن جسدي، واسمي يحلّق فوقي أشبه بقوس قزح معلّق في سماء بعيدة عن متناول يدي، يراه الكثيرون ويعرفه الكثيرون، وأنا أركن كالأسد المدحور في عرش مزوّر لا يعرف حجم خيبته سواي، تتراءى لكم أبهاءُ ملوكيته من الخارج ولا يرى صدأ جدرانه الداخلية إلّاي، فعبثاً يغار مني من يغار وتحسدني قوافل الحسّاد، وعبثاً أسعى إلى إقناعكم بهذه المفاجأة المروّعة إذ أعرف أن أخلاقكم الكريمة وحسن سلوككم وطيبتكم الزائدة عن اللزوم لن تقودكم بيسرٍ وعطفٍ إلى تصديق خرافاتي . في كلّ مكان، أينما ذهبت، ثمة احتفاء خاصّ بي من قرائي والمعجبين بي، وغالباً ما يحرجني هذا الاحتفاء وأنا أحلم دوماً بالاحتفاظ بطفولتي وعفويتي وعذريتي وولعي المجنون باللعب والعبث بالأشياء، كم أتوق اللحظة إلى نوبة صفاءٍ أعجن فيها الطينَ بأصابعي اللاهية العابثة، لأصنع منها كائناتٍ ملعونةً تستجيب لرغبتي في الغامض والغريب والدفين والمتحول والوهميّ .

كنت أعتقد أنّ لعبة الكتابة والمعرفة بسحرها وإدهاشها ووهمها الخلاّب تجلب لي مزيداً من الأصدقاء فحدث العكس. كنت أعتقد أنّ لعبة الكتابة والمعرفة بقوة حضورها وسطوتها وكبريائها وألقها تقلّل أعدائي فحدث العكس. كنت أعتقد أنّ لعبة الكتابة والمعرفة بما تتوافر عليه من ثراء وغنى وخصب تجعلني استثمر وقتي على نحو مثاليّ لأكون زوجاً جيداً وأباً جيداً وربما عاشقاً جيداً فحدث العكس. كنت أعتقد أنّ لعبة الكتابة والمعرفة وهي تركّز الخبرة وتضاعف التجربة وتعمّق الإحساس بالوجود ستقودني إلى أن أحقق ذاتي فحدث العكس .

للتوّ فقط أدركت حكمة المعرّي الكبير حين قال ((هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد))، وربما فهم كلّ الدارسين والمحللين والمؤولين أنّ جناية الأب التي يقصدها المعري هنا هي العمى، لكنّ حقيقة الجناية التي يقصدها هي جناية الأدب، فلم يتزوّج، ولم ينجب طبعاً، ولم يعشق، ولم يكن لديه أصدقاء، وبقي رهين المحبسين (الوحدة والكتابة) ولم يجنِ على أحد مثلما فعلت أنا، أعترف هنا بأسى عميق أنني فهمت النصّ بعد فوات الأوان.

أستطيع بقليل من الجرأة أن أشبّه نفسي بطارق بن زياد حين أتيحت له فرصةُ فتح أوربا، فغامر مغامرةَ كاتبٍ شجاعٍ بحرق السفن التي عبر فيها البحر المتوسط مع جيشه، وقال قولته المشهورة ((البحر من ورائكم والعدو أمامكم))، لكنّ الفرق بيني وبينه أنّ لديه قضيةً وجيشاً وسيوفاً وعدواً معلوماً، وأنا أحارب الوهم في حرب طويلة قاسية بلا نهاية وبلا قضية، جيشي دوال وسيوفي دلالات وعدوي رموز وافتراضات وعلامات، فمن ذا الذي بوسعه الانتصار على الوهم، ذلك الذي هزم أعظم الإمبراطوريات في العالم وسحق أكثر الطغاة جبروتاً، فلا بدّ إذن من أنني الخاسر في النهاية .

كتبي في النهاية ليست لي، وكذلك طلبتي، وبعد كلّ هذه العواصف التي نَثرتْ كِسَرَ الثلج، وشذرات الموسيقى، وما تبقّى من الملائكة اللاهين، وشظايا الصور، وخصلات العشب الدبق على شواطئ مهجورة، أجدني وحيداً إلّا من كلمات لمّا تروّض بعد، وشقائق تَعِدُني منذ زمن بعيد بالتفتّح ولا تفعل، وأنا أصرّ مثل مجنون أبله على الاحتفاظ بها، وعيونٍ تفيض بالنرجس والنور تحرسني بغرامٍ خرافيٍّ مثل عاشقة أنطونيو غالا في ((الوله التركي)) على الرغم مني، أنا مدين لها بحياتي .

هكذا أرفع دهشتي تحية لكم، وأوقد آخر شمعة نسيتها الريح في جعبتي ذات ليلة باردة كي تتعرّفوا إلى وجهي في هذه الظلمة، أسمع عزف قلوبكم الطيبة الآن تدغدغ مسامعي فأُنصت

إليها بشغف، وأرنو بفضول لصوصيّ إلى كلّ حكاية تدور في خلد كلّ منكم لأتلمّس فرحها وأفرك نشوتها، وأغبطكم على تلك الرائحة الخضراء التي استلّتني من وحدتي وغمرتني بكم، كما يستلّ العاشق المغدور قلبه الوحيد، فشكراً لكم أولاً وشكراً لكم آخراً .

أسبوعان في ((وان))

في زيارتي السابقة إلى تركيا صيف العام الماضي (٢٠٠٩) غزاني شعور عميق بالراحة والفرح والطمأنينة، لم يكن هذا الشعور واضحاً تماماً أمام رغبتي في التفسير، على الرغم من أنّ ذلك كان واضحاً على محيّاي، كما عرفت حين عودتي إلى منزلي وقد لاحظت زوجتي بوجدانها المحبّ ذلك البريق الذي لا يخفى في أعماقي، لم أعد راغباً في مواصلة البحث عن تفسير ما لأنّ ذلك يفسد طفولة المباهج، ويرقّن قيد الفرح، ويمحق قمر الدهشة.

ظللت أعبّ من رحيق تلك الزيارة حتى جاءت زيارتي الثانية وقد عرفت أنها ستطول قليلاً بحسب الدعوة التي وجهتها لي ((جامعة يوزونجي ييل)) لألقي سلسلة محاضرات على طلبتها الذين يدرسون اللغة العربية، كنت في كامل الطمأنينة وأنا أقف صحبة جمع غفير من المسافرين في مطار أربيل بانتظار السماح لنا بدخول الطائرة التي ستقلّنا إلى اسطنبول، وحيث بلغت الساعة الثانية والنصف بعد ظهر يوم الجمعة الثامن من تشرين الأول ٢٠١٠، وصالة المطار مكيّفة جيداً تفادياً للحرّ الشديد في الخارج، سرتْ همهمات بين بعض المسافرين الذين جاءتهم اتصالات من اسطنبول تتحدّث عن عاصفة مطرية قوية هناك، لكن السماح لنا بركوب الطائرة بعد عشر دقائق من التأخير عن الموعد الرسميّ ألغى التكهنات باحتمال تأخير الرحلة، وأخذ كلّ مسافر منّا مقعده على متن الطائرة التي ما لبثت أن أقلعت في سديم الفضاء بكلّ حرية وأناقة.

وصلنا مطار (أتاتورك) في الجانب الأوربيّ من اسطنبول بعد الخامسة مساءً بقليل، وبعد أن انهينا إجراءات مغادرة المطار وكانت في غاية السهولة واليسر، أخرجت هاتفي النقّال وطلبت صديق الدكتور محمد شيرين رئيس قسم اللغة العربية في جامعة يوزونجي ييل في مدينة (وان)، لكنه رفض المكالمة ليعيد الاتصال بي مباشرة من جهته ويعلمني بوجود شاب اسمه (إبراهيم) ينتظرني في صالة المطار الخارجية، حاملاً بطاقة كبيرة مسجّل عليها اسمي، سرعان ما عثرت عليه فصافحته على الفور وأخذ حقيبتي من يدي ورافقته إلى مرآب السيارات الذي يفصله عن بناية المطار شارع ضيّق نسبياً، وبعد أن استقللنا سيارته اتضح أنه لا يجيد العربية كما أنا لا أجيد التركية، لكنه يحسن من الإنجليزية ما يمكن أن يحقق لنا قدراً كافياً من التفاهم، وفي الطريق اتصل الدكتور محمد شيرين مرة أخرى كي يطمئن على أوضاعي ثم اتصل بعدها

صديقي الأستاذ عبد الهادي تيمورتاش المدرّس في جامعة يوزونجي ييل ليسلّم عليّ ويخبرني بأنّ إبراهيم سينقلني إلى الجانب الأسيويّ من اسطنبول حيث مكان إقامتي معه، وهنا أتيحت لي سياحة ليلية أمدها ثلاث ساعات لشدّة الازدحام في شوارع اسطنبول، وتوقفنا بعض الوقت على مضيق البوسفور حيث لقاء البحر السود ببحر مرمرة، واستأذنني إبراهيم ليجلب لي وله قدحين من النسكافيه مع قطع كيك لذيذة وماء في طقس اسطنبوليّ غائم وممطر وبارد .

وصلت بعدها إلى مكان إقامتي في الجانب الأسيويّ إذ استقبلني عبد الهادي ومجموعة من الأساتذة الذين سبق لي أن التقيت ببعضهم في زيارتي السابقة، وقد قدموا إلى اسطنبول من مدينة (وان) في أقصى شرق تركيا لحضور مؤتمر دولي بعنوان (هدي خير العباد)، وقد أمضينا ثلاثة أيام جميلة في اسطنبول زرت فيها صحبة الأصدقاء مسجد السلطان أحمد وبايزيد والفاتح، وتجولنا كثيراً في شوارع اسطنبول يقودنا عبد الهادي العاشق للمشي، وعرّفنا على بعض ذكرياته في منطقة الفاتح حيث كان يسكن ويعمل في الإجازة يوم كان طالباً في القاهرة، وعلى الرغم من أنه أرهقني في ساعات المشي المتواصلة إلّا أنني كنت في غاية الاستمتاع ولاسيما حين جلسنا في مقهى على الرصيف سمّاه (مقهى الجدار) وقال بأنّ كبار الأدباء والمفكرين يرتادونه دائماً.

بعد انقضاء أيام اسطنبول استقللنا طائرة محلية إلى مدينة وان مع مجموعة كبيرة من أساتذة الجامعة، وبعد طيران ساعتين وصلنا ظهراً مطار وان وكان بانتظارنا أحد الزملاء، حيث أقلّنا فوراً إلى مبنى الجامعة الذي يبعد بحدود ١٥ كيلو متراً عن مركز المدينة، في مكان شاسع يطلّ على بحيرة وان مباشرة، وقد قلت لأصدقائي هناك لو أنّ مشاريع كبرى تقام في هذا المكان باستثمارات ضخمة ربما ستكون أعظم مدينة جامعية في العالم، لما تتمتّع به من رحابة واحتضان لبحيرة وان الكبيرة جداً .

اليوم الأول في وان كان يوماً شاقّاً ومتعباً بالنسبة لي، إذ أخبرني الصديق عبد الهادي أنّ الدكتور محمد شيرين يسأل متى نصل بالضبط خوفاً من أن لا أكون في موعد المحاضرة الأولى التي سأدخلها، وقد حسبت أنّ عبد الهادي يمزح إذ كنت جائعاً وبحاجة إلى راحة واستلقاء وقيلولة، ولم أعرف أنّ الأمر كان جاداً حتى وصلنا قسم اللغة العربية وبعد الترحيب الموجز وتناول سندويجة سريعة مع الشاي أخذوني فوراً إلى المحاضرة، وفي الصف فوجئت ثانية أنّ عليّ أن أدرّس اللغة العربية لغير الناطقين بها، أي أعود إلى التدريس المتوسط تقريباً بعد أن

هجرت هذا النوع من التدريس أعواماً طويلة، حتى إنني في العشر سنوات الأخيرة في الجامعة تفرّغت لتدريس طلبة الدراسات العليا فقط .

عانيت كثيراً حقاً في إعطاء الدروس بهذه الطريقة حتى أنّ صديقي عبد الهادي صادفني مرة وأنا خارج من أحد الصفوف، وحين وجدني أغصّ بعرق بلّل قميصي كلّه قال لي هل أنت خارج من معركة؟ وقد فرحت بهذا الوصف الذي يدل على اندماجي العميق ورغبتي العارمة في السعي إلى إيصال المعلومة إلى الطلبة، كنت بالرغم من هذا الجهد الكبير في غاية الاستمتاع وأنا أشاهد الطلبة يندمجون معي برغبة كبيرة في التعلّم، لقد أحببتهم جداً وأحسب أنهم بادلوني هذا الحبّ، وكانت تجربة في غاية الطرافة والمتعة والجمال .

كانت إقامتي في فندق صغير وجميل وأنيق داخل الجامعة تفصله عن البحيرة باحة مشجّرة رائعة المنظر، ولطالما كنت أنزل صباحاً أتجول بها وصولاً إلى البحيرة وهي غالباً مملوءة بالطلبة ذكوراً وإناثاً، في منظر يسرّ العين ويريح الخاطر، كنت أتناول الفطور صباحاً قبل أن يأتي الصديق محمد شيرين رئيس قسم اللغة العربية ليأخذني إلى الدرس، وقد أعدّ لي برنامجاً أنموذجياً أعطي فيه درساً لمدة ساعتين صباحاً وآخر مثله بعد الظهر، ثم نذهب إلى أحد مطاعم الجامعة صحبة العميد في كثير من المرّات وأساتذة آخرين، ثم أعود إلى الفندق لآخذ قيلولتي ويعود إليّ مساءً الدكتور محمد كسكين غالباً معاون العميد ليأخذني إلى المطعم المركزيّ الخاص بالأساتذة قريباً من الفندق .

ربما يبدو في هذا السياق وكأن وقتاً طويلاً سأقضيه وحدي بعد وجبة العشاء التي تنتهي بحدود السابعة والنصف عادةً، لكنني كنت بأمس الحاجة إلى هذا الوقت إذ كنت أشتغل على كتابي الجديد وقد جلبت معي كلّ ما أحتاجه من أجل العمل عليه، لذا أنجزت هناك ما يقرب من ربع الكتاب، وعلى هذا فلم يكن لديّ وقت فراغ البتة، ومرّ الأسبوعان وثلاثة أيام بعدهما مروراً سريعاً جداً .

وإذا كان لا بدّ من الحديث عن طبيعة الجامعة فهي بالنسبة لي . بوصفي زائراً عابراً ربما . ساحرة بمعنى الكلمة، وعلى الرغم من أنها بحاجة إلى عمل كبير يرفعها إلى مستوى الجامعات الكبرى نظراً لموقعها الستراتيجيّ المذهل، إلّا أنها بإمكاناتها الحالية جامعة جميلة في كلّ شيء، إذ إنّ البحر يمنحها طقساً ومنظراً وإحساساً آسراً وأخّاذاً، وكنت حين أتجول على الشاطئ

وسروب الغيد تخترقني ذات اليمين وذات الشمال اشعر بنشوة رائعة، وأغبط الطلبة على حياتهم الجامعية المثالية .

في اليوم الأول من العطلة بعد انقضاء الأسبوع الأول تناولنا وجبة عشاء فاخرة ولذيذة جداً في منزل الدكتور شيرين في المنطقة الجبلية التي تشرف على المدينة، وفي الصباح الباكر قادنا في رحلة ساحرة إلى جزيرة (أختمارا) وسط البحيرة حيث صفاء الطقس ومتعة الرحلة مع محمد شيرين ومحمد كسكين ورمضان أوزمان، وحين سألت عن معنى اسم الجزيرة تطوّع شيرين بسرد حكايتها التي تتلخص في أنّ شاباً تركياً أحبّ ابنة القس الذي يترأس الكنيسة المتمركزة وسط الجزيرة، وكان اللقاء بينهما يتمّ حين تقوم الفتاة بإضاءة مصباح نفطيّ صغير كان بمثابة دعوة للعبور نحو الجزيرة، ولم تكن المسافة طبعاً بالأمر الهيّن مطلقاً إذ استغرقت رحلتنا إلى الجزيرة بعبّارة سريعة ما يقرب من ربع ساعة تقريباً، كان يقطعها العاشق المسكين سباحة، وفي يوم ما كشف الأب القس هذه العلاقة فاحتجز المصباح وسجن ابنته، وحيث كان العاشق بحاجة إلى إضاءة ثانية كالعادة حتى يخرج إليها بعد أن تلقّى الإشارة الأولى للانطلاق من اليابسة وأصبح يحوم حول الجزيرة، غير أنّ الإضاءة المنتظرة تأخرت طويلاً حتى فقد كلّ قدرته على مواصلة السباحة، وقبل أن تبتلعه البحيرة إلى الأبد صاح صيحته الشهيرة ((أخ .... تمارا)) إذ كان اسم حبيبته المنكوبة ((تمارا))، فظلّت هذه الصيحة ترنّ في ضمير العشاق وأسطورة الحبّ حتى تعارف الناس عليها بهذا الاسم .

في اليوم الثاني من العطلة وهو يوم الأحد كانت لي رحلة مع الصديق الدكتور رمضان أوزمان، أخذني صباحاً إلى سلسلة مطاعم شعبية تغصّ بالزوّار وتناولنا فطوراً تقليدياً يدعى عندهم بـ ((الفطور الوانيّ))، ثم غادرنا بسيارته نحو ((قلعة وان)) الشهيرة وقضينا وقتاً جميلاً هناك حيث وجدنا عرساً كبيراً جداً قيل إنه لأحد أبناء المسؤولين هناك، وكان الغالب على الأغاني والألحان والدبكات والرقصات التراث الكرديّ الذي أعرفه جيداً، ويعد تجوال في السوق أوصلني مساءً إلى محل إقامتي داخل الجامعة.

كان عليّ في اليوم الأخير من برنامجي أن ألقي محاضرة عامة لطلبة الكلية ((كلية الإلاهيات)) محاضرة عامة من اختياري، فقررت أن ألقي محاضرة بعنوان ((كيف تقرأ نصاً أدبياً)) حضرها كلّ طلبة الكلية وأساتذتها وعميد الكلية الدكتور عبد الباقي جونش ومساعد رئيس الجامعة، وقد استمرت مع المحاورات والمناقشات ما يقرب من ساعة تقريباً، أعتقد أنّ الجميع

كانوا في غاية الاندماج والتفاعل معي . ولاسيما طالباتي وطلابي الذين أرى المحبة الصادقة تتلألأ في عيونهم . على الرغم من صعوبة المحاضرة بعض الشيء على قسم منهم .

ثمة دعوة غداء في اليوم ما قبل الأخير داخل المدينة في منزل الأستاذ (رجب) الذي لا يجيد العربية جيداً، وكان برفقتنا الأخ عميد الكلية وصديقين آخرين أحدهما الدكتور زاهد توفيق أستاذ في كلية الطب البيطريّ وهو عراقيّ من كركوك يقيم منذ خمسة وثلاثين عاماً في هذه المدينة، وبعد أن انتهينا من وجبة الغداء اللذيذة جداً وهي وجبة شعبية معروفة في العراق تسمى ((مقلوبة)) لكنها أُعدّت بطريقة أخرى، جلب لنا الأخ رجب قميصاً هدية لكلّ مدعو قائلاً إنّ هذه الهدية هي ((أجر الضرس)) الذي مضغ الطعام، وقد استحسنت الفكرة جداً . ربما لأنني مدعو ولست داعياً . وأنا أسمع بها أول مرة .

في اليوم الأخير وقد حزمت أمتعتي للسفر إلى اسطنبول شعرت بغصّة أن أفارق هذه المحبة الغامرة والكرم الرفيع، مثلما شعوري بشوق عظيم إلى أسرتي سواءً بسواء، كنت على موعد صباحي مع الدكتور محمد كسكين الذي سيقلني بسيارته إلى المطار، حيث وجدنا الدكتور شيرين بانتظارنا وقد أخذ حقيبتي من يدي وأنهى كلّ الإجراءات المطلوبة وسلّمني البطاقة فودعته ودخلت مكان الانتظار الذي يفصلني عن الطائرة، فلوّح لي شيرين من بعيد وانتهت هنا على هذا الأساس مدة الأسبوعين في وان، لكنني فوجئت بعد قليل بشخص يسلّم علي باسمي فصافحته وقلت ربما عرفني في الجامعة، لكنه حين أشار إليّ أن أنظر إلى خارج المكان وجدت أن الصديق الجميل المدهش شيرين ما زال واقفاً، إذ وجد أحد معارفه مسافراً ليوصيه بي حتى أخر مرحلة وآخر رمق من الضيافة الباذخة التي لا يمكن وصفها.

وحين صعدنا إلى الطائرة طلب هذا الصديق الجديد من المضيفة تغيير مكانه ليجلس بجانبي، ثم بعد قليل من إقلاع الطائرة أخرج كتاباً تعليمياً في اللغة العربية وبدأ حواره معي، وكان عليّ أن ألقي درساً آخر في العربية حتى وأنا على متن الطائرة، ولولا أنّ شريكنا الثالث القريب من مقعدينا اعتذر بأدب بأنه يريد أن ينام ولا يتمكّن من ذلك لأنّ صوتنا يزعجه، لكنت قضيت ساعتي الطيران إلى اسطنبول في درس طائر لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، فاغتنمت الفرصة الذهبية على الفور ورحت في غفوة طويلة كنت بأمس الحاجة إليها، غير أنّ هذا الصديق الكريم لم يتركني حين وصلنا المطار حتى جاءني مضيفي الذي كان ينتظرني خارج المطار، وهنا ودعني ((وفي نفسه شيء من حتى)) .

أقلّني الأخ الذي استقبلني إلى مقر جامعة الفاتح مكان إقامتي حتى صباح الغد حيث طائرتي إلى أربيل في الحادية عشرة صباحاً، وسألته إن كان يعرف شيئاً من العربية أو الإنجليزية فأفاد بأنه لا يجيد سوى التركية التي لم استطع أن أتعلمها في هذين الأسبوعين، لأنّ السيد العميد طلب مني أن أعلّم طلبته العربية ولا أتعلم التركية، وهكذا خسرت فرصة ثمينة لتعلّم اللغة التركية في مدة أسبوعين من دون معلم .

تحية إلى الصديق عميد الكلية، تحية إلى الجميل الرائع الأنيق في كلّ شيء محمد شيرين، تحية إلى عبد الهادي الذي كان أكثر من نسمة شفافة مشحونة بالحبّ أتفاءل به دائماً، تحية إلى رمضان أوزمان المتعطش لتعلّم العربية مثل عاشق ملهوف، تحية لكل أساتذة كلية الإلاهيات وقد غمروني بمحبتهم وكرمهم، تحية إلى طالبات الكلية طالبة طالبة وإلى طلابها طالباً طالباً، وإلى فضاء الجامعة الرحب وفضاء البحيرة الأرحب، وإلى كلّ كلمة حبّ واعتزاز وتقدير وكرم تلقيتها من الجميع وبقيت هناك شاهداً على الصدق والجمال واللغة والمعرفة، مؤملاً روحي بأنّ ثمة لقاءات كثيرة من هذا النوع هي في طريقها إليّ، لذا لم أقل لأحد منهم وداعاً بل كنت أقول للجميع إلى لقاء قريب .

نافذةٌ للوجد: حينَ يخضرُّ العطر

رائحة المكان هي من أكثر الروائح أصالةً وثباتاً وسطوة وديمومة وغموضاً وسحراً وإدهاشاً، حين ينجح المرء فجأةً في التقاطها فإنها ستتجذّر فيه، وتستعمر حواسّه، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانه الوجدانيّ العميق، ويكون من الصعب عليه بعد ذلك الاستغناء عنها أو التنازل عن فداحة حضورها، إذ تتغلغل في مساماته ولغته وحساسيته وأنفاسه، ويندبغ بها جلده، فتستعمر جسده وروحه وجنونه إلى ما شاء الله، وحينها يكون للمكان معنىً آخر يخضرّ فيه العطر خضرة أبديّة مكتظّة بالنور لا تدانيها خضرة، خضرةٌ هي العطرُ نفسهُ، وعطرٌ هو الخضرةُ نفسها.

كان إيقاع هذه الرائحة يتردد في مسامعي الظامئة قادماً من بطون الأقاصي وسراباتها، تحتفل به روحي الملتاعةُ وتعطّر وعدَها ببروقه التي سرعان ما تضيء وتختفي مثل شُهُبٍ خجولة متمرّدة، تاركة في فضاء الحلم كِسَراً من نورٍ لا تشفي الغليل لكنّها تلوّح بإشارات قادمة في بريد الأفق، أفتح نافذة الانتظار بولهٍ مدوزن باليأس كي لا أُتعبَ طفولة الرائحة وهي تتسلّل إلى سهولِ عالمي في غفلة مني، ولتجدني كما تتوقّع متحفزاً للقائها ضامئاً متّقداً ساخناً على سرير الانتظار.

في مكتبة كلية التربية للبنات في جامعة تكريت ومنذ خريف عام ١٩٩١ حيث باشرت عملي مدرّساً لمادّتي الأدب الحديث والنقد الحديث في هذه الكلية، كنتُ أغزلُ وقتي وأهدهده وأحرّره من مللٍ محتملٍ أو كآبةٍ متوقعة، فبعد أن أنتهي من محاضراتي لطالبات السنة الرابعة بمعدّل ساعتين في اليوم تقريباً على مدى أيام الدوام الأسبوعيّ، لم يكن لي من ملاذ سوى المكتبة، أراجع فيها ما أكتب، أو أكمل فيها ما كتبت، ولي فيها مآربُ أخرى، حتى تتجاوز الساعة الثانية بعد الظهر فأضطر إلى مغادرتها لأنّ دوام الموظفات فيها ينتهي، وحين كنت لا أشعر تماماً بوقت انتهاء الدوام كانت الموظفة الأخيرة تبدأ بإطفاء الأنوار والقيام ببعض الحركات المزعجة لتلفت انتباهي إلى تنمّرها وتذمّرها وضيقها من وجودي المتأخر الوحيد، فلا مناص إذاً من المغادرة تمهيداً ليوم جديد قادم يخضع للطقوس نفسها ويتقدّمُ في كلّ شيء خطوةً إلى الأمام.

ربما بعد أسابيع قليلة من مكوثي في تكريت بدأت حاجتي للتواصل مع الفضاء الثقافيّ والأدبيّ الممكن والمتاح في المدينة، لم أكن أعرف سوى القاص فرج ياسين بما قرأت له ويمكن،

أو أتوقع أن أتواصل معه على أكثر من مستوى، وحين طلبت مساعدة الصديق الملاك الدكتور زكي الآلوسي (رحمه الله) الذي كان رئيساً لقسم اللغة العربية، قام على الفور بمهاتفة فرج ياسين ورتّب أول موعد بيننا، وسرعان ما انعقدتْ بيننا صداقةٌ جميلةٌ تكشّفت فيما بعد عن أشياء مهمة جداً، ربما ستتيح لي هذه اللحظة الطللية استذكار ما يمكن استذكاره من شذراتها.

وبما أنّ فرج ياسين (بيتوتيّ) من طراز رفيع، فإنّ منزله صار ملاذاً جديداً لي في مساءات حائرة، ما كان يمكن لها تمضي لملولٍ ومزاجيّ مثلي من دون كآبة لولاه، فكانت المكتبة بيتي حين أنتهي من محاضراتي في الكلية حتى ما بعد منتصف النهار، ومنزل فرج ياسين يلفّني بالمحبة والودّ والكرم بلا حدود في تلك المساءات، وهكذا احتميت بالأمكنة وقد تحوّلت إلى نافذة للوجد يخضرّ العطر فيها وتتورّد الأحلام ليتّقد المعنى في قلب الزمن، وتتهدّج الأيام على إيقاع غريب غامض كنت أستشعره منذ زمن بعيد وولد بين يدي المكان بكلّ عنفوانه وألقه وسلطانه.

صار لي هناك أربعة أمكنة، الأوّل هو الفندق البائس الذي كنت أنام فيه وسط المدينة ((فندق حلب)):

فندقٌ يحرسُهُ ليلٌ أمينْ

فندقٌ يقضمُ سأمَ العابرين

وغالباً ما كنت أذهب إلى الكلية مشياً على الأقدام فلم تكن المسافة بعيدة فضلاً على أنني من عشاق المشي، وهو فندق يقطنه العمال غالباً، وليس فيه ضمانات كثيرة لعدم سرقتك وأنت نائم، لكنه بالرغم من كلّ ذلك مأوى منفرد لا يشاركني في غرفتي أحد، وهو أمر بالغ الأهمية لي، والثاني هو الكليّة التي تأخذ نصف نهاري، بما في ذلك المكتبة التي تسحق ما يقارب ثلاث ساعات يومياً حتى نهاية الدوام الرسميّ، والثالث هو منزل فرج ياسين مساءً، وكان ثمة مكان آخر كان له حصة من امتصاص حليب الملل والحيرة الذي كان ينزّ به جسدي، هو المركز الثقافيّ الاجتماعيّ لجامعة تكريت وسط المدينة، إذ كنّا نلتقي يومياً مع ثلة من أساتذة الجامعة وقد جاءوا من كلّ حدب وصوب، باختلاف مللهم ونحلهم وأشكالهم وألوانهم، منها ما هو أليف ومنها ما هو غريب ومنها ما هو عادي أو أقلّ من ذلك، وهناك تعرفت على طبيب أسنان متخصص في جراحة الوجه والفكّين اسمه سعد الصالحي (هاوي أدب)، تحوّل منزله فيما بعد إلى مكان آمن لي يمكن أن يضاف إلى تلك الأمكنة الآمنة التي تحدثت عنها .

منذ مباشرتي في الجامعة تعرّفت أيضاً إلى الدكتور محيميد مدّ الله الجبوري أستاذ علم الأحياء في كلية الطب، وهو (هاوي أدب) أيضاً، وكان منزله حيث يقيم فيه وحده ملاذاً آخر من ملاذاتي، كنت في ليالي كثيرة أسهر معه وأبيت عنده هرباً من الفندق البائس ليوصلني صباحاً إلى كليتي، وكنت أسعى إلى مساعدته في ترتيب ما يكتبه من شعر كي يقترب من حدود المعقول، وأفعل ذلك مع سعد الصالحي صحبة فرج ياسين، هذا قدرنا كما يبدو أنا وفرج ياسين نبقى معلمين دائماً، هذا كان مناخي باختصار، وكان فرج ياسين الشاهد الأصيل عليه بكلّ طبقاته وجيوبه وخفاياه، وهو شريكي في صوغ الفضاء الخفيّ في مكتبة كلية التربية للبنات حيث كنّا نعتقد أنا وهو أنّ ثمة حيوات تبقى تعيش فيها حين نغادرها لتواصل تشييد أحلامنا واستكمال بناء رؤانا التي لا نستكملها في أثناء الدوام، فتسعى هذه الحيوات الغامضة إلى استكمالها نيابة عنّا .

وإذاً فرج ياسين حاضر حضوراً استثنائياً في كلّ حراكي الثقافيّ والإنسانيّ (الظاهر والباطن) طيلة مكوثي في تكريت، وصار أن اقترحت عليه أن يواصل دراسته للماجستير في كليتنا بعد أن توافرت فرصة خاصة للمبدعين والمتميزين من موظفي الدولة، وحيث استحسن الفكرة أولاً لم يبادر كما كنت أظنّ إلى تفعيل هذا الاقتراح عملياً، وربما مرّت سنة من دون أن يفعل شيئاً، لكنني حسمت الأمر مع نفسي وراهنت على قدراتي الخاصة في الوصول بفرج ياسين إلى منصّة الدراسات العليا، وكان لي ما أردت بالرغم من كسله وقلة اكتراثه، ولعلّ هذا الأمر من الأشياء القليلة التي أفخر أنني أنجزتها هناك .

هكذا أصبح فرج ياسين طالباً للماجستير في فرع الأدب العربيّ أدرّسه مع زملائه مادة ((تحليل النصوص الأدبية))، وكان وجوده في قاعة الدرس بهجة كبيرة لي حيث كان يتملّكني إحساس جميل بأنّ ثمة من يعرف ما أريد ويلتقط ما أقول بالسرعة التي أتمناها، طبعا يشاركه بعض من زملائه الجيدين لكنّ وجوده كان يملأ المكان كما أشتهي، وكما يجعلني أكثر تألقاً ومتعة في إلقاء الدرس وتقديم الأفكار وتحليل النصوص المنتخبة من الشعر والسرد، وأكثر تحرراً من ربقة الحساسية الأكاديمية التي تضغط عليّ لإخراجي من طفولتي وشعريتي ومراهقتي وصعلكتي، إذ كان وجوده في المحيط نافذة لي لتلك الحرية التي أتلمسّها على الرغم من أمنيات المحبين الباذخة التي تريدني أن أكون ملكاً، أو ترى فيّ ذلك، وكنت أهديت أعمالي الشعرية كلّها لتلك الأمنيات حين قلت فيه ((**قدر الملوك الذين يخطئون التقدير أن يظلّوا صعاليك حتى**

النهاية))، وأعدهم بأنني سأبقى أميناً على تلك الأمنيات الغالية من دون أن أتحوّل إلى ملك كما يشتهون، وسأبقى أحنّ إليهم فمائهم العذب لا يشبهه ماء في الدنيا.

تضاعف اللقاء بيني وبين فرج ياسين حين أشرفت عليه في رسالة الماجستير ((توظيف الأسطورة في القصة العراقية الحديثة))، وللأمانة أقول بأنني لم أتدخل فيها كثيراً حيث كان هو على وعي كبير بعمله، وقد أبهر بعمله المناقشين الذي منحوه تقدير ((امتياز)) مع توصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة، كان ذلك عام ١٩٩٦، ثم صدرت كتاباً بعد ذلك عن دار الشؤون الثقافية في بغداد، وحصل الأمر نفسه بعد عشر سنوات من ذلك حين أشرفت على أطروحته في الدكتوراه ((أنماط الشخصية المؤسطرة في القصة العراقية الحديثة))، ونالها عام ٢٠٠٦ بتفوّق، وصدرت كتاباً فيما بعد عن دار الشؤون الثقافية أيضاً .

كنت أحرّضه دائماً على السعي إلى نقل خدماته الوظيفية إلى الجامعة بعد أن أمضى أعواماً كثيرة في التدريس الإعداديّ، وأثمر ضغطي بعد لأيٍ عن إقناعه بالعمل الجدّيّ في هذا السبيل حتى نجح أخيراً وانتمى إلى هيئة التدريس في كلية التربية للبنات، ففرحت بالأمر كثيراً كي يواصل ما حققته أنا هناك، وكي أضمن لجذوري فيها ماءً نظيفاً يجعلها قادرة على بعث الحياة في تلك التفاصيل الشفافة التي لا يراها أحد، وليشحن تاريخي في طيّات تلك الأمكنة بكلّ ما يجعله متّقداً ووحشياً وقاسياً على النحو الذي يذكّر بي ويشير إليّ مهما بالغ المشوّهون في قطع شرايينه وأوردته.

تمّ نقلي من كلية التربية للبنات إلى كلية التربية بفعل مؤامرة صغيرة من صغار كانوا يهابون مواجهتي ويوجعهم تألقي، كانت تحرسهم مناصب ومواقع وإمكانات، ولم يكن في صفّي سوى ثقافتي وثقتي بنفسي وكبريائي ومحبّة القلّة الهائلة التي تحيط بي، ضحكت عليهم كثيراً حيث اعتقدوا بأنهم تمكّنوا منّي، ولم تكن ثقافتهم البدائية أو وعيهم القاصر يدرك بأنّ تجربتي الأكاديمية والإنسانية في كلية التربية للبنات قد انتهت، ونهاية التجربة هي التي نقلتني إلى كلية التربية وليس هم، وفعلاً بدأت مشواراً آخر هناك وأشرفت على أطروحة الدكتوراه لفرج ياسين في كلية التربية ودرستّه في السنة التحضيرية أيضاً .

ظلّت علاقتي بفرج ياسين استثنائية بكلّ المقاييس، وظلّ منزله الكريم مرفأً أنعم فيه بالأمان والمحبة ومعنى الصداقة التي لا يمكن أن تتكرر كثيراً في هذا العالم الصاخب، وظلّ هو أميناً على مراهقتي وطفولتي وشعريتي وأكاديميتي أيضاً، فمن أقواله المشهورة فيّ حين يشهد تقلباتي

العاطفية الباذخة: ((والله يا أخي أنت تعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء))، وعلى الصعيد الأكاديميّ قال: ((من لا يمرّ من قنطرة محمد صابر عبيد في الدراسات العليا تبقى أكاديميته ناقصة))، وهو ما أعتزّ به كثيراً، وقد قلت سابقاً ((صحيح أنني أشرفت عليه أكاديمياً لكنه أشرف عليّ في مجالات إنسانية أخرى أكثر أهمية عندي من الأكاديمية))، كنت معه في كامل الطمأنينة والحرية حيث لا أبذل جهداً في أن أمرّر له ما أشاء بسهولة، ولم يتجاهل ذلك إلا نادراً، ومع طمعي غير المحدود في إطلاق عصافير رغباتي وأمنياتي بكلّ جنون أحياناً، إلّا أنه كان حكيماً في استيعاب طوفاني على النحو الذي حرس فتنة علاقتنا بهذه الشعرية التي لا مثيل لها، فطوبى لي به غبّ ذلك الوقت الحرج من تجربتي مع الإنسان والمكان .

شهد فرج ياسين ولادة الكثير من قصائدي التي ضمّها كتابي الشعريّ ((هكذا أعبث برمل الكلام))، والكثير من رسائلي التي ضمّها كتاب ((رسائل حبّ بالأزرق الفاتح))، وهو الوحيد الذي لديه خارطة طريق دقيقة لتاريخ وسيرة وحياة كلّ قصيدة ورسالة منها، وبوسعه إعادة كلّ جملة بل كلّ كلمة فيها إلى مضانّها وبيتها ومرجعيتها، وكشف عالمها السرّي بكلّ زينته وبهائه وتموّجاته البديعة، كان شريكاً لي في إنجازاتي ومتواطئاً مع الكثير من حماقاتي وخطاياي الجميلات .

لا يمكنني في شهادة قصيرة مثل هذه أن أقول كلّ شيء عن تجربتي معه بكلّ شحناتها ومحمولاتها الحقيقية والسيميائية، ربما لأنها أوسع من الكتابة وأكبر من السرد والحكي، إنها حياة كاملة بمباهجها الكثيرة وأحزانها القليلة، ومن أراد أن يعرف شيئاً عن تجربتي الشائكة الموّارة الغزيرة الأثيرة الملوّنة الإشكالية فليسأل فرج ياسين، فهو أعرف منّي بها، لأنه كان شديد الانتباه والإحاطة والمراقبة وكنت شديد الانغماس والتجلّي والغوص في مياه رغباتي اللدنة، فكان يرى كلّ شيء وكنت لا أرى شيئاً، بصره من وراء زجاج العوينات حادّ كصقر، وبصري بلا عوينات منكفئ على ملذّاته لا يرى أبعد من مربع صغير لا يتجاوز الأربعة أمتار مربعة معلّق فوق الجميع ولا يحسّ به أحد، يا إلهي كم أحنّ إليه الآن وأتوق إلى لحظاته الجهنمية الباغية.

كنت وما أزال أنظر إلى شخصية فرج ياسين أقرب إلى كونها شخصية سردية طالعة من جوف قصة أو قبو رواية، يمشي بخفة وبطء كأنه لا يريد أن يوقظ نيام الأرض، ولا يوجع صدرها بالضغط عليه، ولا يجرح وردها الغافي على إيقاع قدميه، يسمع أكثر مما يتكلّم، الشاعر القديم فيه أكثر حضوراً من القاص الراهن، بالرغم من شكله الذي ينتمي بكليته إلى فضاء

القص، لديه رغبات مدفونة تنطلق أحياناً من مفكرته الغائمة دون إذن منه فأفهم عندها لماذا كان يحرس لهب شمعتي بحبّ وسط مناخ صقيعيّ جاف وبليد، وأعرف أنني حين توجّهت إليه فقد توجّهت في الأصل نحو شاطئ تُكثر فيه الضفاف والنوارس والصخور المنحوتة ببراعة الطبيعة التي لا تدانيها براعة، وأفسّر تماماً لماذا كنت أنعم هناك بنوم هادئ هانئ مثل طفلِ أليفٍ لا يخدشُ نسمة، ولا يفزّز عصفوراً، ولا يثير غباراً حين يبكي .

المرابد الأخيرة في تسعينيات القرن الماضي حتى ما قبل الاحتلال الأميركي كانت مساحة أخرى تنفّس منها ضيقنا ويأسنا وحصارنا، كانت نافذة أخرى للوجد يخضّر فيها العطر، كنّا ننتظرها بفارغ الصبر بما أنّ سفرنا إلى خارج العراق أصبح من الأحلام البعيدة، إذ كنّا نلتقي أصدقاءنا العرب القادمين من شتّى بقاع الوطن العربيّ وهم يحملون لنا الكتب والمجلات والمكافآت، كانت تلك المرابد احتفالاً حقيقياً لنا أنا وفرج ياسين وسعد الصالحي، نعدّ العدّة للسفر إلى بغداد لنقيم أياماً في فندق الميليا منصور، طبعاً لم تكن تعنينا الفعاليات الثقافية وخصوصاً الجلسات الشعرية التي نادراً ما كنّا نحضرها، في حين نحضر الجلسات النقدية بانتظام تقريباً.

الليلة الأولى في المربد من أهم لياليا، نزور منطقة (البتاوين) مساء لنتسوّق منها حاجياتنا الليلية، ثم نأتي لنحتفل في غرفتنا التي غالباً ما نقتسمها أنا وفرج ياسين، وتبدأ بعد ذلك الطقوس التي تحقق لنا القسط الذي نحتاجه من الحرية والمتعة، وكنت أقول لفرج ياسين: كلّ مربد يعادل لنا نصف سفرة إلى الخارج، يا إلهي ما أروع أصدقاءنا المربديين زياد أبو لبن ومحمد القيسي (رحمه الله) ومحمد ضمرة وسعد الدين شاهين وعلوي الهاشمي ورفقة محمد دودين وغيرهم، ومع أنّ لي أصدقائي من الأدباء العرب ولفرج ياسين أصدقاؤه أيضاً، غير أننا لم نكن نفترق أنا وهو إلا نادراً، وكان صديق فرج ياسين الرائع صباح القسّ الذي أصبح صديقي أيضاً أحد أهم وأبرز الأمكنة الدافئة الجميلة في رحلتنا المربدية، صديق كلّه كرم وصدق وثقافة وحيوية وحياة، ومازال طعم صداقته لا يفارق إحساسي ووجداني مع أنني لم ألتق به منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً، لكنني كنت أطمئن على أخباره من فرج ياسين .

لم يكن القاص جمال نوري بوصفه صديقاً مشتركاً بيني وبين فرج ياسين بعيداً عن حساسية هذه العلاقة وجوهرها، فوجوده بيننا كما أراه الآن يُكمل بعض ما يشوب اللوحة من نواقص، ربما في اللون أو الخطّ أو الكتلة، إذ مع أنّ علاقتي بفرج ياسين شبه متكاملة على الكثير من الأصعدة لكنها كانت تفتقر إلى شيء غامض، أعتقد أنّ كلينا يشعر به على نحو ما لكننا قد لا

ننجح في تعيينه على نحو محدد وحاسم، وفي ضوء هذا الشعور القَلِق كنت أطمئن على وجود جمال نوري بيننا، إذ كان يختفي هذا الشعور بحيث تبدو لوحة العلاقة بحضوره بهيّة بألوانها الطبيعية الزاهية، وبخطوطها الدافئة، وبكُتَلها التي تتوزّع على مساحتها بكلّ موسيقية وأناقة وجمال.

وفي هذا المدى من رائحة الوجد وهي تتغلغل في خضرة الإحساس بالأمل والذكرى والوجد الجميل، يلوح وجه عالم الرياضيات الصديق الدكتور سليم الكتبي محلّقاً بيني وبين فرج ياسين مثل عطر خلّاب لا يعرف طعم الغياب، كان عنصراً مهماً من عناصر اكتمال اللوحة على نحو من الأنحاء على الرغم من أنّ لقاءاتنا قليلة نسبياً، فحين نلتقي أنا وهو وفرج ياسين يتملّكني شعور باكتمال اللوحة، إذ تبدو الألوان أكثر حرارة وتميّزاً وحركة تتيح لي رحابة أكبر في الحديث واستظهار الرؤية، وهو الشيء الذي يصنعه حضور جمال نوري أيضاً ولكن في سياق آخر وحساسية أخرى .

ثمة آخرون قريبون، آخرون بعيدون، آخرون بين بين، أصدقاء، محبّون، عشّاق، أعداء، أعدقاء، حسّاد، تافهون، مصلحيون، عاديون لا ملامح لهم، أرى الآن حين التفت إليهم كم هم ضروريون للوحةٍ مختلفةٍ ومغايرةٍ نتلبّث أنا وفرج ياسين في قلبها، هذه اللوحة التي تتشابك فيها الطبقات وتكتنز الظلال وتتموّج الرؤى، يظلّ فيها فرج ياسين كاهناً يحكي وحكواتياً يتكهّن، يتربّع على سطح اللوحة وباطنها مثل عرّاف غامض يشعر الجميع بوجوده لكنه لا يُرى، لابثٌ بين اللون وظلّه، بين الخطّ والتماعته، بين شكل الكتلة ومضمونها، متصوّف يبعثر شذرات العشق بعبث طفلٍ منسيّ، ويعيد ترتيبها بحكمة سلطان عادل، كلامه يمتدّ على قماشة اللوحة بامتلاء كامل مثل رواية طويلة لماركيز لا يمكنك حذف مفردة واحدة منها مهما بلغتَ من القسوة والعداء والجبروت، لا زيادة ولا نقصان، اللوحة مشبعة بزئير المعنى ومكتظّة بلحن العطر، بحيث تحار أين تضع هذا الحرف الزائد التي تودّ حشكَهُ مثل خنجرٍ بين لون الوردة ورائحتها، بين العين والحلم، بين الرغبة والخجل، بين الفعل والفاعل، بين الصوت والصدى .

وإذا كان لا بدّ لاكتمال فضاء اللوحة من تخوم وملحقات وديكورات ومساحات تتقصّد المجاورة، أو تفتعلها، أو تحلم بها، فبوسعنا القول إنّ فضاء اللوحة يزدحم بها، فراشات وأيائل وطواويس وجنادب وذباب كثير الطنين، ملائكة وشياطين، وكأن العالم كلّه بكلّ توافقاته وتناقضاته، حقائقه وتوافهه، عسله وعلقمه، وروده وأشواكه، يلتحق بهذا الفضاء الذي يضمّني مع

فرج ياسين، حتى لنكاد نشكّ أحياناً أنا وهو فيما نرى أو نتخيّل أو نظنّ، لكنّ هذا هو ما حصل بالضبط بعيداً عن ربيع الغرور وخريف التواضع، وهو ما أسهم عميقاً في توسيع نافذة الوجد حيث يبدو العطر أكثر خضرة ونداوة ونفاذاً، وتبدو اللوحة أكثر تمظهراً وتحدياً، وأطول عمراً، ويبدو فيها فرج ياسين أكثر شباباً حتى لتعشقه عاملة أحد المولات في السليمانية ذات شتاء دوننا، وسط تعليقاتنا الحاسدة وقد لفّها عطر الرغبات المتناثر على أطراف الأردية المشتهاة، وضاعف من حجم حضور اللوحة وزاد من قوة تأثيرها في المحيط .

هل تمكّنتُ يا ترى بهذه الهرطقة الاستذكارية الباسلة أن أشيّد ((نافذةٌ للوجد)) تليق بفرج ياسين؟ وهل استطعت أن أمسك باللون والرائحة ((حينَ يخضرُّ العطر)) في ضفافه؟ من أجل أن ينحني القمر لي، وتقبّلني الشمس، ويؤمن فرج ياسين من جديد بأنه يستحيل على التاريخ أن يعيد نفسه؟

على هامش عشق السيّدة

لا أدري إلى أيّ زمنٍ ملوّنٍ يمكن أن تعود قصيدة صداقتي مع لؤي حمزة عبّاس، هذا الجميل العذب الذي لم أرَ سمرة بهيّة مشتعلةً بالأمل كسمرته في حياتي، كأنما ظلّت البصرة تغزل خيوط سمرتها وتهذّبها وتعذّبها دهوراً عديدة كي تنتج هذا الوجه الرائق الأليف، وهو يختزل صورة البصرة بتاريخها وجغرافيتها وعراقيتها وجنوبيتها وعطرها الخلاّب الذي لا يُنسى، وجهٌ ذكيٌّ لمّاحٌ هادئٌ كأنّه كنزٌ بلا قرارٍ من السرد والحكي والشعر والورد بهالةٍ من نورٍ تومض في وجهي كلما تذكّرته، كان يظهر خَطفاً في المهرجانات يسلّم عليّ بحبّ نادرٍ أتلمّسه كما أتلمّس زهو فراشة طالعة من صوت الريح فجأةً وهو يصافحني، أو يقدّم لي قصةً كتبها، أو مشروعَ رواية، أو كتاباً، وأظلّ مأخوذاً بسحر هذه الإطلالة الخاطفة تترك أثرها بحيوية لا يدانيها مكوث سنوات.

لم يغب لؤي عن حساسيتي الجمالية الإنسانية والثقافية والرؤياويّة مهما تباعدتْ بنا المسافات، وتعرّت الأقمارُ، وتحجّرتْ بيننا الأزمنة، إذ كانت صورته كما رسمتُها أول مرة ماثلةً في ضميري بجانب صور نادرة عسيرة التشكّل توغّلت في أعماقي بسلاسةٍ إلى درجة الخلود، وصافحتْ حرارةَ دمي لتقول لي بكلّ جرأة وبسالة إنّ الحبّ هبة سماوية حاسمة ليس بوسع المرء الاعتذار عن قبولها مهما قَسَى وطغى وتجبّر، كانت ومازالت واحدة من أجمل الهبات التي لم تبخل السماء يوماً ما في تمويني بها حتى وإن كنت صديقاً غير جيد لها ولا أعترف بزرقتها دائماً، وهكذا حلّ لؤي في وجداني كما تحلّ الفصول بغتةً في وجدان الطبيعة.

وحيث كان يهمّ لؤي أن أقرأ له ما يكتب بالتماساتٍ شفافةٍ لا تقاوَم، فقد وصلتني . قبل قليل من زمن تفجّر رغبتي في كتابة شيء غامض يتحرّش بأناملي ويوقظ فيها جذوة التمرّد والصعلكة والجنون . شهادتُه عن ((عشق السيدة))، إذ انفتح فيها على فضاء هو أكثر الفضاءات وجعاً وأخصبها إثارة لمرارة التذكّر، وظهر الأب (حمزة عبّاس) مبللاً بشوق لؤي ولوعته وسرديته، وربما ندمه الخفيّ، ظهر كأنه حارس أزليٌّ أمين عام للميناء، للبصرة، للمحبة، لزمن أم كلثوم، زمن المذياع العظيم وهو يقدّم صوت فيروز وأم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب وبقية العمالقة الأفذاذ كمصوغةٍ عذراءَ في يد صائغ مولعٍ بمهارته، أو يقطّره بين أيدي مسامعنا مثل رائحة أخّاذة لا تتكرر، فما زلت أنا . وبالتأكيد لؤي مثلي . حين نسمع المذياع نشعر بأصالة الصوت يتدفّق من

أغوار البئر الأولى ويفيض من أفواه الينبوع الأوّل، ليس كما نسمعه في آلة التسجيل أو التلفاز حيث يبدو لسبب ما مزيّفاً طالته يد التزوير.

ربما تعرّفت إلى صوت السيدة مبكراً نسبياً لكنني لم أندمج به وأتعاهد معه على علاقة ما إلّا في سنيّ الجامعة الأولى، كنت أقضي الأسبوع كلّه في مدينة الموصل، والعطلة في نهايته في زمّار القرية المهذّبة على أطراف الحدود السورية التركية، الأجواء معقولة في الأقسام الداخلية، غير أنّ عصر كلّ يوم كنت مع ثلّة من زملائي نحتفل بأنفسنا في شارع حلب والدوّاسة وحديقة الشهداء فهي مركز المدينة وحلمها الجميل، وينتهي الاحتفال بحضور فيلم في إحدى دور السينما التي يعجّ بها شارع الدواسة ابتداءَ من سينما النجوم وسط شارع حلب حتى سينما حمورابي نهاية الدواسة، ولا بدّ من الجلوس ساعة في مقهى أم كلثوم، المقهى التي لا تقدّم سوى شايٍ بطعم لا يمكنك الاكتفاء باستكانة واحدة منه مهما كنت عزوفاً عن شربه، ولا تسمع فيها إلّا صوت أم كلثوم، ومع من أنّ صوتها قادم لك من آلة تسجيل غير أنّ العشق الجماعيّ الذي تشترك فيه مع الجموع المصغية تنقذه من مغبّة عشقك الوحيد لصوتها حين يتجلّى لك من دفء المذياع وسحره وجبروته، الفضاء مشبعٌ برائحة صوتها ومختلط بعبق الشاي السيلانيّ الأصيل، والصمت النجيب الذي يحلّ بالمكان يأخذك إلى حيث تحبّ من التأمل والتطلّع والسَرَحان وتشييد الأحلام والتواصل مع نداءات الآمال بلا حدود.

لم أشعر في يوم ما أنّ أم كلثوم غابتْ، أو ماتتْ، فصوتها المحلّق أبداً في أحلامنا هو أكبر من كلّ أنواع الغيابات الممكنة، أو الميتتات المحتملة، صوت عابر للأزمنة والأمكنة والفضاءات والسطور، صوت قادم من غيهب المجهول، من الأقاصي، من بطون الليل الدفين، من غموض الفجر، من استرخاءة الشمس، من رطوبة القمر، من تماسك الجبال، من انفتاح السهول، من رهبة ليل الخليج، من نداءات البحار المغوية، من خوف الأمّهات على أطفالهنّ الوحيدين، من انتظارات العشّاق على أرصفة الرغبة الحائمة، من خفقة القلوب الضعيفة على الأحبّاء الغائبين، من ابتسامة الربيع المخاتلة في وجه المطر، من إيقاع القصيدة ودهشة القصّة، من خضرة الشجر، من حُمرة الطين، من بياض الحليب، من شهقة الندى، من سوادِ شَعرِ تلك الفتاة الذي مازال يبطش في خيالي بكلّ مقصّات العالم بلا رحمة، فمن أين يمكن للغياب أن يأتيها، وكيف يجرؤ الموت على سرقتها من أسماع مئات الملايين، كيف؟

لم يكن أبي (صابر عبيد) يحب أم كلثوم على ما أظن على الرغم من أنّ له طاقة هائلة على الصبر صدّقتُ فيها مقولة (لكلّ امرئ من اسمه نصيب)، كان يحب فيروز ووديع الصافي وصباح وقد حضر حفلاتهم في بيروت يوم كان مقيماً في أحد مصحّاتها يتلقى العلاج من مرض التدرّن الرئويّ أكثر من ثلاث سنوات، ومن يتوغل في حبّ اللون اللبنانيّ والنساء اللبنانيات والمقاهي اللبنانية منتصف ستينيات القرن الماضي حيث عرفت ذلك من الساحرة المدهشة غادة السمّان، لا أظنه ينجح في قبول شريك آخر يجلس في أحضان عشقه حتى لو كانت أم كلثوم، وكنت أغفر لأبي هذا الإثم العظيم الذي لا يليق لأبٍ قليل الكلام مثله أن يقترفه بحقّ ابنه البكر الذي سيعشق صوتها فيما بعد، فثمة أسباب كثيرة غير حقوق الأبوّة أرغمتني على إعلان هذا الغفران الذي لم أندم عليه قط .

حين زرت القاهرة أوّل مرّة مطلع صيف ١٩٩٠ أدركت فوراً سرّ عشقي لصوت السيّدة، إذ هي في القاهرة أسطورة لا تختلف عن الأهرامات، أو المتحف الفرعونيّ، أو نجيب محفوظ، أو نهر النيل، حتى ظننت أنّ ضابط الجوازات في ميناء القاهرة الجوّي بعد أن يتأكد من سلامة جواز سفري سيسألني إن كنت أحبّ صوت السيدة أم لا، إذ لا يمكن لمن لا يحبها دخول الأراضي المصرية حتى لو كان يحمل جوازَ سفرٍ دبلوماسياً، يا إلهي كم كنت سأحترم الأمن المصريّ لو أنه اتخذ قراراً من هذا النوع مع أنه سيمنع المرحوم أبي لو كان زار القاهرة في يوم ما، وكم كنت سأشعر بحقّ جديد مميّز يضيفه لي صوتها العظيم.

سأعترف لك يا صديقي لؤي أنك أكثر ولهاً بصوت السيدة منّي، مع أنني بالتأكيد عرفته قبلك إذ أكبرك بعشر سنوات تقريباً، فليس من المعقول طبعاً أنك تسللت إلى حبّ صوت السيدة من خلفي وأنت في العاشرة، بينما أنا في هذا الوقت طالب جامعيّ أكتب شعراً وأنشره، وأعشق، وأحتسي البيرة، وأقضّي ساعات طويلة في مقهى أم كلثوم في شارع حلب يومياً تقريباً كي أنتشي بصوتها الصدّاح وهو يسرق الألباب من بداية شارع العدالة حيث تتوسطّه سينما الحمراء، إلى نهاية شارع حلب التي تتوسّطه سينما النجوم، لكنّ من لديه وقت فائض الآن لقراءة بَوْحَينا هنا سيكتشف بسهولة عناءك العميق بصوتها على حساب احتفالي الانفعاليّ بها، وسيغّلب ما كتبته أنت على ما كتبته أنا، ولن أشعر بالخسارة أبداً كونك تفوّقت عليّ في استكناه طاقة صوتها وعذوبة فضائه، لأنّ مقهى أم كلثوم تلك تحوّلت إلى محل خياطة، وسينمات شارع حلب وشارع العدالة والدواسة احتلّتها كراجات أو مخازن أو مطاعم للأكلات السريعة التي تفتقر إلى أبسط

الشروط الصحية، وفقد الشاي السيلاني (الزنكين) عبقَهُ وصار بلا طعمٍ تقريباً، فلم أعد في فورة هذا الزوال العجيب أسمع صوت السيدة إلا لماماً.

كنت سأكتب لك عن أبي أكثر كما فعلت أنت بهذا الوجع النبيل تحت ظلال صوت السيدة واستعادة تلك الرائحة بهذه النشوة التي افتقدناها منذ زمن، لولا أنني كنت كتبت رسالة إليه بعد وفاته نشرتها في كتابي ((سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح)) أصابتني بحمّى مرعبة، فكما ترى يا صديقي صرنا نعرف الخوف، ونتحسّب للنكسات الصحيّة، ونكتفي بأقصر المسافات التي توصلنا إلى مساعينا بأقلّ ما يمكن من الخسائر، أين ذهب ذلك الجنون والحمق والتمرّد والسطو على الثمار الجهنميّة وهي في أعلى درجات التهابها ولذاعتها من دون وجل، لا بأس ... طالما أنّ صوت السيّدة كلما لفحني على حين غرّة أشعر بالتوقّد، وبعزيمة لا تلين على المضي في مغامرة عشق في سبيلها إليّ، وعلى هذه النشوة التي تغمرني بها، تواصلاً معك وأنت تصغي لبوحي من بين مواجع كثيرة لا حصر لها.

بلاغةُ الذاكرة

الذاكرة هذا القبو المظلم الذي لا قرار له تعادلُ حياةَ الإنسان بأكملها، هي كيانٌ متطرّفٌ لا تحفظ سوى الجميل الأصيل الذي لا يستطيع النسيانُ محوَه حيث يمكث في تاجها وعلى أطراف عرشها، وتحفظ في طبقة مظللة من طبقاتها كلّ ما هو حزين وأليم وقاسٍ، أما ما بين هذا وذلك فيضيع حتماً في وادٍ مظلم عميق تسحقه عجلاتُ الفقدان، هذه حكمة الذاكرة وهذه بلاغتها وهي توفّر للإنسان ذخيرةً من الصور والمواقف والوجوه والأماني الغائبات كلّما شعر المرء بحاجة كي يلوذ بالماضي بحثاً عن دفء مفقود أو حنين محجوب.

حين سألني اليوم ولدي (ريبال) إن كنتُ أعرفُ الأستاذ (مازن) الذي يدرسّه الاجتماعيات في المدرسة الأهلية تحشرجتْ ذاكرتي فجأة وأوشكت على البكاء، يا إلهي ما أصغر هذه الدنيا كأنها مربّع شطرنج أو أصغر، الأستاذ مازن الجميل المدهش مدرّس التاريخ، عالم التاريخ، العاشق للتاريخ ولطلبته، كان الأستاذ مازن يسحرنا بشخصيته الفذّة وأسلوبه وعرضه لمادته إلى درجة أنه كان يشعرنا بأننا نعيش هذا التاريخ ونحن جزء لا يتجزأ منه، نعيش أصغر دقائقه ونتفاعل معه بروحٍ تتجاوز حدود الصفّ والمدرسة والمعرفة المجرّدة للمعلومة، لم أكتشف حبّي لمادة التاريخ إلّا على يديّ هذا الأستاذ العملاق.

وأنا أكتب الآن أعود إلى ما يقرب من أربعة عقود مضينَ هكذا بلمح البصر، أنا الآن طالب في الصف الرابع العام في (ثانوية زمّار للبنين) أجلس في الصفوف الأخيرة من الصف وأستمع بشغف إلى الأستاذ مازن وهو يتوغّل في التاريخ الأوربيّ كأنه أحد أبطاله، لم يكن مدرسّاً عادياً يشرحُ فحسب، بل كان يصوّر وينقل التاريخ إلى أحضاننا حتى لنكاد نرى أبطاله ونعيش أدقّ تفاصيل لحظات الحروب التقليدية بين فرنسا وبريطانيا، كان يذهب إلى أرض التاريخ ليزرعها بالمعرفة والتصوير والعرض السرديّ الدراميّ إلى حدّ يمكّننا من رؤية الصورة وشمّ الرائحة وسماع أصوات الخيول والعربات والأسلحة، والاقتراب من أولئك الفرسان الأفذاذ قوادّ الجيوش، كان يعلّمُ ويعرضُ ويوازن ويحلل ويتوقع ويربط الماضي بالحاضر بالمستقبل.

كان الأستاذ مازن يميّزني عن بقية زملائي على الأقلّ في أسلوب الكتابة، وأذكر أنه قال مرّة أمام الطلبة أنني أحياناً في الامتحان لا أجيب على السؤال بشكل دقيق لكنّ أسلوبي يرغمه على

أن يعطيني درجة عالية، وكم كنتُ سعيداً بمثل هذا الكلام الجميل، وأظنّ أنّ ما أنا عليه الآن . والحمد والشكر لله أولاً وآخراً . يؤكّد تماماً صواب رأي الأستاذ مازن بي ودقته ومعرفته، لذا ظلّ هذا الأستاذ ماثلاً في ضميري ووجداني وذاكرتي بوصفه شجرة دائمة الخضرة والثمر والمحبة على الرغم من ثقل زمننا العراقيّ وجبروته ولا عدالته.

أستاذي العزيز الغالي مازن أنت ربما لا تعرف أنك كنتَ ملهماً لي في شخصيتك وأناقتك وعلمك وخلقك وذوقك وأسلوبك النادر في التعليم والتربية والتعامل البالغ الذكاء مع تلاميذك، كنتَ ومازلتَ وستبقى مثالاً لي، لقد تعلمتُ منك الكثير ربما من دون أن تَعلم أو تنتبه، وكنتَ على الدوام حاضراً في إصراري على أن أفيَ بما كنتَ تظنّه فيّ من تميّز وتفرّد، ولم تغب عن فضائي العام وأنا أحصل على أعلى الشهادات والدرجات العلميّة، وأشترك في مؤتمرات وندوات في الكثير من الجامعات والمؤسسات الثقافية العربية، وأنشر الكتب في عشرات دور النشر العربية، وأكتب أبحاثي ومقالاتي في أهمّ الصحف والمجلات العربية، وأحصل على الجوائز، وأمنح الشهادات العليا لطلبتي، وأترك بصمتي الخاصّة التي لا يمكن تزويرها على كلّ الأمكنة التي أزورها، والأزمنة التي أحضر فيها، والطلبة المتميزين الذين ينطلقون إلى الفضاء النقديّ والأكاديميّ العربيّ من عباءتي، لك في كلّ ذلك ولمثلك من أساتذتي الأجلاء حصّة، ولأنني أبقى ذلك التلميذ الراغب بالتعلّم سأبقى أدين لك بالمعرفة والمحبة والفتح العلميّ المبين، سأبقى تلميذاً ينتظر المعرفة دائماً، وأستاذاً يمنح ما لديه لكلّ من يستحق.

أستاذي الكبير مازن أشتاق الآن لأعرف أين ذلك الزمن الجميل الذي كنتَ تعلّمنا فيه فلسفة التاريخ ورؤيته وفضائه من طبقات معلوماته وأحداثه الجسام، بعد كلّ ما حصل في بلدنا من ويلاتٍ وكوارث وجنون سياسيّ وإيديولوجيّ كسرتْ أكاديمية الفكر التاريخيّ وحيّرتْ عقله، لا أعرف بحسّك التاريخيّ الباهر ماذا يمكن أن تقول، كم أتمنى لو أنّ ذلك الزمن يعود ولو لساعة واحدة أتلقى منك فيها درس التاريخ هذا، ساعة أعود فيها طالباً متطلّعاً إلى المعرفة لأعيد إلى عينيّ طاقة المشاهدة الجميلة الحارّة للأشياء، ولأعيد إلى سمعي قدرة التقاطِ الإيقاعِ الأخّاذ الذي كان يتردد صداه في كلّ موجة صوتية محبّة هناك، ولأعيد إلى لساني لذّة التذوّق، وقد فقدتُها جميعاً تحت ضربات عماءِ الظلام وسياط الغبار ووحشية الجراد الزاحف على خضرتنا بلا شفقة.

طوبى لك وأنت تعتلي قمّة الأفق، ترفل بزهو شخصيتك التي لم تتنازل عن مبادئها حين تعرّضت لحربٍ قذرة من صغار النفوس، وكنتُ أردد وقتها أنّ الأستاذ مازن تعلّم بقوّته هذه أهمّ

درس من دروس التاريخ، وظللتُ أنا أستعيد هذا الدرس الأخلاقيّ الكبير كلما تعرضتُ في مسيرتي العلمية والإبداعية لحروب الحسّاد أعداء النجاح، لم التفت إلى الصغار مطلقاً حيث درّبتُ عينيّ الصقريتين على أن لا ترى إلّا ما هو كبير ويستحق شرف الرؤية، كنتَ يا مدرّس التاريخ الأصيل عنواناً عميقاً مكتوباً بكلّ ألوان الطيف الشمسيّ يلمع أبداً، عنواناً عصيّاً على النسيان مهما خانت الذاكرة وتلبّد وجهُ الزمن بالعثرات.

نوروزُ ..الفرحُ الملوّنُ

يومها كان الفرحُ له طعمُ خاصُ مثلما هو الحزنُ، كان الفرح كثيراً جداً والحزنُ قليل، الفرحُ في كلّ شيء تقريباً، والحزنُ في شيء واحد (ربما) هو الموتُ الذي نادراً ما كان يحدث، بينما الطفولة في ((زمّار)) حيث يعيش العرب والكرد والتركمان، المسلمون والمسيحيون، الأغنياء والفقراء، في منزل كبير واحد اسمه وعنوانه الأصيل دائماً ((زمّار))، القرية المتحضّرة الهادئة التي تكتنز بما فيها من نهر دجلة وهو يحيط بها كما يحيط السوار بالمعصم، و (الكزرة) مجموعةُ التلال الخضراء التي تعتليها من جهة الجنوب، والشخصياتُ الأثيرةُ التي ظلّت تشعل ذاكرة الزماريين بالمعنى، وتشحنها بالحبّ، وتعطّرها بأوهاج الربيع وبهجته ومهرجانه، والمحبة التي كان دستورُها لا يفرق بين عربيّ وكرديّ ومسلم ومسيحيّ إلّا بالمحبة نفسها، وكان الجميع على درجة عالية من الذكاء بحيث يحصلون في كلّ امتحانات المحبّة على العلامة الكاملة، وهي تعني أوّل ما تعني بطبيعة الحال ((المحبة الكاملة)) .

عيد نوروز في زمّار هو عيد العرب مثلما هو عيد الكرد، الكردياتُ الجميلاتُ يخرجن في هذا اليوم بالزيّ الكرديّ المدهش الذي يبدو دائماً وكأنه عرسٌ كاملٌ، الألوان الزاهية تتداخل فيه تداخلاً عجيباً بإيقاع سيمفونيّ تتلاشى فيه الحدودُ وتتفتحُ على سطوحه المسافاتُ التشكيليةُ، يتحرّكن في أفق الاحتفال سروباً متموّجةً يبعثنَ الفرحَ والبهجةَ في كلّ زاوية من زوايا المكان، ويُشرقنَ على الوجوه كما تشرق شمس الله من خلل الغيوم، ولعلّي أنا الناظرُ الطفلُ والشابُ والعاشقُ والشاعرَ إلى هذا المنظر الساحر، لا يمكنني أن أنسى هذا الكرنفالَ السنويّ الأخّاذ ما حييت، إنه عيد الأعياد بما يتيحه لنا من مطالعة سحر الوجوه وغناء القلوب وموسيقى الحب، الطيور تغرّد، والزهور ترقص، وتلتقي الأرض بالسماء في عناق صوفيّ لا نهايةَ له.

عيد نوروز في زمار الذاكرة صوتٌ يدقّ في فناء الروح بلا هوادة، ويرسم في بهاء الزمن صورةَ الأمل وهو يغرّد أعذب نَغَمٍ يمكن أن تردده آلة موسيقية عاشقة، الليل يتحوّل فيه إلى كتلٍ ناريّة مضيئةٍ تنقّطُ الفضاءَ المظلمَ بنورٍ حادٍّ جريء يتحدّى القرون، فتتعالى التواءاتُه الضوئيةُ مخترقةً جبالَ العتمة لتنيرَ الوجوهَ القصيّةَ التي صارتْ أبعدَ من مرمى الحلم، وظلّت تتشبّثُ

باللغة والصورة والمخيّلة بعنفٍ وعنادٍ وسلطان، من دون أن تتمكّن كلّ مآسي الدنيا من انتزاع هذا الطفل الخرافيّ الأثير من ذاكرتي الأم .

لذا فقد بقي بهاء نوروز يسافر معي من زمّار عبر دجلة إلى دهوك، ومنها إلى إبراهيم الخليل، حيث تشرأبُ أندرُ ألوان العالم على امتداد التلال والجبال الممتدة في منطقة بهدينان دخولاً في الأراضي التركية، حيث تختلطُ عطورُ الناس بعبق الطبيعة والحبّ والسلام، ربيعٌ أصيلٌ ابنُ ربيعٍ أصيلٍ، لا فرق بين زهرة وزهرة، ولا بين التماعةِ عشبٍ وأخرى، ولا بين لهجة لا يحوي قاموسها سوى كلمات المحبة والتسامح وأخرى، ولا بين ظنٍّ جميلٍ وآخر، ولا بين خفقةِ قلبٍ ينعشُها قمرُ نوروز وخفقةٍ تتدلى بغنجْ آسرٍ من حضن الجبل، هكذا تسرح العينُ في لحنٍ طويلٍ يسري من شمال الوجدِ إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه .

لكلّ عيدٍ هويته المميزةُ، وعَلَمُهُ المميّزُ، وبصمتُهُ المميّزةُ، وسلوكُهُ المميّزُ، وهويةُ نوروز وعَلَمُهُ وبصمتُهُ وسلوكُهُ لم يكن سوى هذا الكرديّ الجميلُ الذي يزهو بذاته وأرضه وزيّه، واحتفاله بيومِهِ القوميِّ طالعاً من عمق جراحه ضاحكاً نحو قمّة الجبل، يُخلصُ لمسرّات اللحظة مثلما يُخلصُ لأعزّ ما يؤمن وأعزّ ما يملك، ويتمظهرُ هذا الإخلاصُ في أزياء نوروز الطافحة بالأناقة والكثافة اللونية البهيجة والابتسامات الجريئة، التي ما تنفكّ تغرّدُ في دلالٍ لتملأ الليالِيَ الموحشةَ بينابيعَ من هديل وقدّاح وغوايةٍ طريّةٍ، وتخطُّ على سفوحِ قوسِ قُزح آيةَ الحريّة التي تختلج بها صدورِ العشّاق المتيّمين، وتطرقُ أبوابَ الفضاء ليرتعشَ زيتونُ الأرضِ الأخضرُ الصافي، وينسفحَ الليلكُ المتعطّشُ للتفتّحِ على وجوه البشر بلا تمييز، وتعلو الرايةُ خفّاقةً توقدُ في رؤوس الجبالِ المترامية الأطرافِ شمعةَ الأمل .